عازف في الليل

رواية

عازف في الليل

تأليف

سليمان الشتيوي شفتر

عنوان الكتاب: عازف في الليل
تأليف: سليمان الشتيوي شفتر
رقم الإيداع: 2008/565
ردمك: ISBN: 978-9959-55-038-5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حقوق الملكية الأدبية والفنية جميعها محفوظة لجامعة 7 أكتوبر
ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو نقله على أي نحو، سواء بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر خطياً ومقدماً.

الطبعة الأولى
2008 مسيحي

منشورات
جامعة 7 أكتوبر
الإدارة العامة للمكتبات - إدارة المطبوعات والنشر
هاتف : 2627201 - 2627202 - 2627203- 2620648
فاكس: 051/2627350
ص.ب: 2478
الموقع الإلكتروني: www.7ou.edu.ly
البريد الإلكتروني: info@7ou.edu.ly

تم تخصيص الرقم الدولي الموحد للكتاب من قِبل :
الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
دار الكتب الوطنية - بنغازي - ليبيا
هاتف: 9097074 - 9096379 - 9090509
بريد مصور: 9097073
البريد الإلكتروني: nat_lib_libya@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بالكلام تبيض وجوه... وبالكلام تسودّ وجوه

☆☆☆

أيها الطائف حولي، أناديكِ بكل حناجري

أقوالك تطرب سمعي وتذوّب نظري في سحر محاجركِ [1]

لن أتوقف أيها الملاكَ... حتى وان أمسى الليل يغالبه النهار

أيها المنصت الساجي... هل مازلت ساهرا معي؟!

سأكتب عنكِ... سأكتب عنكِ وأنادي عباراتي الساخنة.

تركنا المرفأ منذ وقت طويل... وتقاصت بنا مركب الليل

تمهلْ أيها الساعي... تمهلْ في هذا الدجى...

إن الليلَ لم يكن قاتم السوادِ.

(1) العيون.

محاولة جادة لإنصاف المرأة الليبية...

عبد الكريم الدناع

هذه هي روايته الثانية...

كانت الرواية الأولى بعنوان «سور الحرمان».

وقد شاءت حظوظي أن أقرأها قبل نشرها، وبعد القراءة ترسخ في يقيني أن روائيا بدأ يبزغ نجمه، وأن المكتبة العربية كسبت روائياً مبدعا.

وما أعرفه عن الصديق سليمان الشتيوي شفتر أنه يكتب بغزارة بفكر مرتَّب وعقل ناضج صقلته التجربة، ولكنه لا ينشر كل إنتاجه بل يختار النصوص المتكاملة التي تعالج قضايا تُهِم الناس وتنبش أعماق النفس البشرية وتتوغل إلى أعماق المجتمع.

رواية «عازف في الليل» تدور حول حياة ومعاناة ومواقف شخصية محورية واحدة هي الفتاة «عهود» لذلك نجد أحداثها وحواراتها تُروى علي لسان هذه الشخصية المحورية بضمير المتكلم.

تقع أحداث الرواية في ستينات القرن الماضي حيث الوعي الاجتماعي يتكون ببطء وحيث نسبة الأمية مرتفعة، لذلك نرى مجتمع تلك الحقبة ينظر بازدراء وسخرية للمرأة العاملة أو المرأة السافرة حتى لو كانت – مثل عهود – ملابسها محتشمة وغير متبرجة، متدينة، قوية الشخصية.

كانت عهود ممرضة، وهي قارئة نهمة تلتهم الكتب من روايات وقصص ودواوين شعر، عازفة ماهرة على آلة الكمان وقد تعلمت الموسيقى على أيدي حكيمة أسبانية. وقد حضرت إلى مؤتمرات في الخارج وأحيت حفلات موسيقية في أكثر من بلاد.

عانت عهود من ظلم الأسرة وظلم المجتمع، وبلغ الأمر بزوج الأم أن اتهمها بسرقة سوار أمها لأنه أراد منها أن تتزوج بابنه من زوجته السابقة فرفضت، وحاولت أن تقنعهم بالمنطق فقابلوا منطقها بعقلية إجرامية تآمرية! ولكنها صمدت فهي على يقين أن الله لا يظلم ولا يرضى الظلم.. وهي تستعيذ بكلمات الله التامات من شر عباده ومن همزات الشياطين،

فتصلي وتقرأ القرآن وتصوم. ورغم أنها سافرة في غير تبرج، محتشمة، قوية الشخصية، واسعة الإطلاع، إلا أن المجتمع لا يرى الصورة إلا بالشكل الذي يحب أن يراها به!

صمدت عهود، وتحدت الظروف الصعبة حتى نجحت في خلق ظروفها الملائمة وصنعت حياتها بالشكل الذي ارتضته وتمنته، وفرضت احترامها على الجميع بمن فيهم الذين كانوا يحيكون لها الدسائس لتدمير حياتها.

☆☆☆

المؤلف يريد أن يقول لنا: أن لا شيء يقف في طريق فتاة تسلحت بالإيمان والعلم والثقة بالنفس والخلق القويم لتكون هذه الصفات هي المعادل الموضوعي لنظرة المجتمع المتخلف المسطحة وأحكامه الجائرة.

الرواية، في مبناها، هي وصف دقيق وصادق للمجتمع الليبي في تلك الحقبة، وهي، في معناها ومضمونها محاولة جادة لإنصاف المرأة الليبية التي صبرت وصابرت حتى صارت اليوم سفيرة وقائدة طائرة وطبيبة وضابطة.

سليمان الشتيوي شفتر يتقدم بخطوات واثقة في عالم الرواية البهيج وأقدامه تزداد رسوخا مع كل إبداع جديد لأنه يبدع رواياته بأسلوبه الخاص وتقنيته الخاصة غير متأثر بأحد ولا يتبع أسلوب أحد.

«عبد الكريم»

1

خريف مُبكر وأمطار غزيرة متواصلة، تشد وثاقها على كل الساحل. مدينة بنغازي تكاد تكون في مقدمة المساء عند وصولي إليها في منتصف النهار. هذا الجو المتجهم والمُلبد بالغيوم جعلني نافرة، غائرة، متقلبة المزاج، شبه نادمة على مجيئي!

توقفت الحافلة الصغيرة، التابعة لوزارة الصحة. عند مبنى متواضع قديم، نزلنا ثلاث عشرة صبية من تلك الحافلة. دخلنا مسرعات، وكان في استقبالنا رجل وثلاث ممرضات، الابتسامة المرحبة لا تفارقهم، وأيديهم المصافحة تسبق أيدينا، وألسنتهم الحنون لا تتوقف.

– مرحبا.. مرحبا.. آنستونا.. خشوا.. خشوا.. برد..

خُصص لكل اثنتين منا غرفة.. إلاَّ أنا! ولا أدري لِمَ؟ ربما كان هذا من حسن حظي، إنني الثالثة عشرة.. إنها غرفة واسعة ومُبَرَّدَة. احتججت في نفسي أول الأمر، ثم أرتضيتها بحكم المستقبل المجهول إذ ربما أستقيل وأرجع إلى درنة!.

وقت ظهر اليوم التالي أنهينا إجراءاتنا الإدارية، قُدِّم لنا برنامج الدراسة والجدول الزمني، ثم وثيقة القَسَم والشهادة، وهو أصعب قول لمن يشعر، لأنها تحمل أمانة، تلك التي لم تتحملها السماوات ولا الجبال إشفاقاً منها.. التمريض والعناية بالصحة، هذا هو المحور المضيء الذي امتد أمامنا، وإنه لشعور كبير عند من يحس ويشعر!

لم نكن وحدنا، بل نحن في وسط مائة طالبة من بنغازي ودرنة واجدابيا والبيضاء ومصراتة.

شرعنا في المسير، وامتدت بنا الطريق. توالت علينا الدروس، ووقف أمامنا الجسد البشري، وتكشفت لنا بعضاً من معالمه البيولوجية، ثم ظهر علينا الجسد الإنساني، ليس بالتشريح المبوليس بقدر ما هو تحليل عقدي لمآثر النفس البشرية، ومتابعة مركز الاستجابة الذي يخضع للعلة وعدم القدرة على الاستقامة. هذا العلم، أو هذه القدرات، لا تتأتَّى لكل متعلم أو لكل عبقري. الطب والتمريض يتطلبان مستوىً من العلوم واستعداداً ومقاماً رفيعاً من الثقافة الاجتماعية والإحاطة الصحية. لقد خلق الله الناس أصنافاً، ميولاً ورغبات ونماذجاً.. فليس كل متعلم يعرف أي شيء وليس كل موهوب قادر على كل شيء. الطب والتطبيب ـ على سبيل المثال ـ قدرات خاصة يهبها الخالق لفئة مميزة من عباده.. لا شيء يأتي بدون إفراز، وبدون دراسة متعمقة وتحليل جزئي للمنتخب. فالتمريض له خصائصه، وكذلك الطب بأصنافه، فالدرجة الكبرى وحدها لا تؤهل للنجاح في هذا المضمار، فالأمر هنا يختلف.. والسياق المُتبع لا يعد.. فلا شيء يأتي سبهللاً.. هكذا بدون عنوان كبير ونص يفرزه ومعاناة تجسده وعقل شغوف في اكتشاف المجهول والإحاطة بالظواهر الجسدية والنفسية.. حتى تسمو وترتقي هذه الفنون الرائدة.

أقرأ بشغف، أتأمل بعمق، أسجل بثبات، وإذا كان منهج الدراسة في هذا المعهد يفرض علي ساعتين في اليوم للمراجعة والاستذكار والتحضير، فإني أقرأ ساعتين أو ثلاث قراءة ودراسة خارجية.. جرائد، مجلات، قصص، تاريخ، نشرات محلية وخارجية حول الصحة وجسم الإنسان في القرون المنصرمة والقرن العشرين. يرجع هذا الميل إلى هذه العادة المفيدة تجاه هذا المحور الإنساني الذي صار يموج من حولي ويضيء أمامي ويخاطب نفسي. أتذوق طعم الوجود ولون الجمال.. إنه عالم ما كنت سمعت عنه من قبل، ويرجع ميلاد ذلك القبس في نفسي إلى الأختين: مرضية والأخرى الحكيمة كراسينيا.

مر الشتاء العاصف، وحل فصل الربيع، وتعاقبت الفصول تأخذ أدوارها، وتلون حركة الزمان على الجسد البشري، وتأخذ وجوهاً وتمر من خلالها دولاً وشخصيات بعضها يسقط في لحظة، وقليل منها تبقى صورتها ومعاني كلماتها عالقة في الذاكرة بعضاً من الوقت!

جاءت عطلة التوقف عن الدراسة، كراحة لمدة شهر كامل وعلى كل طالبة أن تستعد للرجوع إلى بيتها، وتعيش لحظات سعيدة بين حنان الأسرة ودفء العائلة. ذهبن جُلَّهن إلا

قليلا، من بينهن أنا.. حزنت في أعماقي وبكت عيناي. تجاوزتُ هذه المحنة بتفكير سليم. كنت صادقة مع نفسي فهداني الله إلى سواء السبيل حيث تمكنت من حفظ ثلاث سور من القرآن الكريم: النساء، والنور، والحجرات. وقرأت كتابين في التاريخ الإسلامي وأربع قصص عالمية: الحرب والسلام، ذهب مع الريح، أوليفر تويست، الدكتور زيفاغو، خلال ثلاثة أشهر ونصف الشهر. يعتبر هذا الانتقال الجديد بعثاً مثيراً لكياني الثقافي والاجتماعي، إنه ضياء متواصل الإشعاع يأخذ أصوله من نجوم بعيدة تنير دروب نفسي وفكري.

لا يُبنى جدار على وهم، ولا شيء يأتي من لا شيء، التاريخ وما سطَّرَه القلم ونحتته الأزاميل وما دُوِّنَ في الكتب، المعروف أن تكون مصابيح وهاجة تدل على الاتجاه الصحيح وتنير دروب المستقبل.

منذ سنة ونصف السنة وأنا في هذا المعهد المتواضع في مبناه، المثمر في فحواه. كنت قبل ذلك وكأني في أعماق بئر تموج بها الحرارة، وها أني خارجاً تشدني فسحة صباحية في هواء منعش نقي، يُبهج مزاجي ويُضَعِّف فرحتي بالحياة.

كنت لا أعي نفسي.. ولا من أنت ولا من هو ولا من هي، مجرد كائن حي يتكلم، يأكل، يبكي، يبتسم، ينام ويعيش في هذا الفضاء المتحرك بين تعاقب الليل وما يُسفر عنه النهار!

كل ما يجري ويظهر كَوْن انطبعت عليه العادة وأَلِفَهُ الناس. تلاوتي لسور القرآن الكريم عمّقت إيماني وحرّكت بصيرتي وجعلتني أواجه الكون بتفسير حي جديد.. اتسعت مداركي وجمح خيالي إلى المورائيات، فعلمني القرآن الكريم كيفية تناول درجات السلم للصعود.. ورَبَّى وجداني على الطاعة، وثَبَّت خطاي في مواجهة الطريق.

العلم سُر سباق التقدم والتفوق، قراءتي للكتب زادت ثقافتي واتساع خيالي وأبعاد مداركي وعدلت أفكاري وعمَّدت الثقة في نفسي، وارتقى أسلوبي ومعاملتي مع الآخرين. وقد وجدت الإسلام يتنافى مع الخرافات والأوهام، فهو ثورة تحرير من القيود ومنطلق وضوح وعاصفة على الكسل والخمول، فلا أدري كيف تكاسلت هذه الأمة وأسلمت أمور حياتها إلى من يكرهها ويواري تاريخها ويشكك في وجودها!

ذات ليلة طرقت «مرضية» باب غرفتي، ودخلت باسمة، وبين كفيها طبق من الفاكهة، جلست بقربي وأنا منطرحة على فراشي، وضعت الطبق بيني وبينها.. ركبتْ جوادها، وركبتُ

جوادي.. وانطلقنا في طريق واحد...

– فاكهة طازجة ولذيذة.. هيا أرجوكِ لا تتوقفي، اطرحي الكتاب جانباً.

– لا تسأليني.. فمي لا يتوقف.. أنتِ من الصنف النبيل يا مرضية.

– وأنتِ أيضاً يا عهود... عهود، عهود... أكثر من سنة ونحن معاً في هذه المدرسة ولا أعرف عنكِ إلا أنك من درنة، واسمك! فلِمَ لا تخرجين إلا نادراً؟ ألا تحبين بنغازي؟ ألا تحبين الناس؟

– ألا يعجبك اسمي!؟

– كل ما فيكِ جميل، اسم وجسد وروح.. صفات بعيدة المنال نادراً ما تجتمع في إنسان واحد... فسبحان الذي وهبكِ كل هذه الخيرات الوفيرة!

– وأنتِ أيضاً لا تنكري ما أنت فيه من حسن ولباقة وخفة روح، أشعر بالأمن والسعادة عندما أحس أنني قريبة منك وأنني بين ناظريك.. هكذا يجب أن تكون ملائكة الرحمة.. بياض في بياض! وجد في جد وإخلاص في إخلاص.

– أشكرك من كل قلبي، أنا من البيضاء، من عائلة فقيرة، والديا وأشقَّاء.. بنتين وصبيين، توقفتُ عن مواصلة دراستي الثانوية – المنحة التي أتحصل عليها من المعهد تصل أسرتي بمجرد استلامها– وها أنا كما ترَيْن، وأنا بالسنة الثانية تمريض.

– مروءة ووفاء وقلب رحيم.. أنت ابنة أبوك وأمك.. ابنة حلال، ولم يدخل جوفك إلا رزقاً حلالا، هكذا يكون الأبناء والآباء، عون على عون، ورحمة.. والله لا يغيب عنه جناح بعوضة. ولكن يلوح من تعبير وجهك ونبرات صوتك أنك غير راضية عن وضعك الاجتماعي. لا يمكنك إيقاف شيء خارج عن نطاقك.. بل هو هذا مسارك الصحيح، تعبير وجهك أيضاً وبريق عينيك ينبآن بأنكِ عامرة المدارك فياضة الجود كريمة الأصل.. لذا فإنك ستصلين إلى أهدافك.. العينان واللسان مم مرايا العقل.. أعزك الله.

– ها.. ها.. ها.. كيف عرفتِ ذلك؟ إنك ترفعين هامتي.

– الروح الطموحة لا تُخفي نفسها، والبصيرة الساعية إلى بعيد لا تواريها رموش عينيك.

– لا أراك تخطين خطوة واحدة دون كتاب أو صحيفة في إحدى يديك.. هل هي عادة قديمة؟

– لا... بل هما رغبة وميل تقلدتهما مع دخولي معهد التمريض، هنا والزمن الثمين، فرضت ذلك على نفسي حتى باتت عادةً. وإنها لعادة ترفع وتقوِّم صاحبها!!

– ما أسعدك، وما أغلى ما تفعلين!

– وأنتِ ما يمنعك؟ خذي الكتب التي قرأتها ومن خطى خطوة في طريق كأنه لم يضيع ما فاته قبل ذلك من ضياع، هيا اسلكي السبيل الذي يناسبك.. شهر وشهران وتجدين نفسك خارج هذا العالم الذي يعج بالغبار والظلام، وقاهر ومقهور، والظلم يقع على الذي لا يظلم ولا ذنب له... إنه العالم الذي صارت تتنصل منه الرجولة تنّصل النصال من سيف الفارس!

– أنت من عائلة متمكنة من العلوم.. باركك الله فيما تسعين إليه.

– من أدراكِ؟ إن تفسيرك وتوقعك لا يخضعان لقاعدة!

– لِمَ اخترت معهد التمريض؟ إن هذا العنوان لم يكن برّاقاً في ثقافة المجتمع!

– الناس يلقون ثقتهم كاملة على الحاج والمُصلي والصائم، وقد تكون هذه مُسَلَّمات غير صحيحة! أتمنى أن يقرأ الناس ويتعلمون ويدخلون فضاء الثقافة الواسع.. حتى أن الذي أخطأ أو يريد أن يخطئ يدرك الخطأ ويدقق في حساباته ولا يلقي بالتهم تسير على عواهنها، فإذا كان الهواء والماء والطعام عناصر تغذي الجسد، فإن العلم والثقافة يغذيان الجسد والعقل والنفس والروح مجتمعةً.. وتصبح الممرضة بعد ذلك محور خير ومنفعة إنسانية ومثابة لا تغيب عنها الشمس.

– من أنتِ يا عهود؟!

– أنا عهود.. عهد.. وعهد.. وعهد.. أنا من قديم.. وما زلت أُحصي وأصطحب من عاهدوا ووفوا بالعهود.

– أعرف أن عهداً هو مفرد عهود في اللغة، ولكني أريد الاسم والجسم والكيان جميعاً... من أنتِ يا عهود؟!

نبرة عميقة في صوتك، وغشاء رقيق ينم عن حزن عميق غالبا ما يظهر على مُحياك وتغرب به عيناك، إذا كان الأمر سراً فلا تعتبريني ملحاحة فضولية!

تقاصت بخيالها لحظات، ثم عادت وقالت: صحيح أن هذا من حياتي الخاصة وأسراري، ولكنَّ صدر الإنسان لا يحتمل قفله بمفاتيح صمَّاء لا تتراجع.. مهما يكن فإننا نحتاج إلى مشاكاة غيرنا.

– الإنسان يا مرضيه لم يخلق زاهداً. حين يكبر الإنسان، وتكثر تجاربه، تتحطم براءته، وتفارقه دهشته الأولى. انتهى زمن الشرف، يا مرضيه وأصبحت كل معاملة طيبة لا معنى لها. بل تكون ضرباً من ضروب، البساطة والبلاهة.

– لا لا.. عهود! أنا لا أقرك على هذا..

– مدرسة الحياة تبدأ من بداية مد الخطوة الأولى...

تُوُفي والدي منذ ثلاثة أعوام وترك لنا بيتا ومتجرا متواضعا، كفل لنا معيشة متواضعة أيضاً.. وكان لوالدي شقيق يصغره سناً. لا أحصي المرات التي دخل فيها البيت. عندما أعود من المدرسة أجده مع أمي، وعلى الرغم من أنه عمي إلا أنني أزدريه ولا أطيقه. ضيف ثقيل في شعوري، يصغر أمي سناً، ويبدو أنه صياد قلوب ولعوب نساء. إنهما يلاحظان، بدون شك، ما يطرأ على وجهي ونفسي وسلوك جسدي. تعددت زياراته وتصرفاته وأسلوبه في الكلام.. إلى مستوى أنني كرهته وعزفت حتى عن النظر في وجهه! قلت لأمي ذات مرة ونحن في خلوة:

– ما يفعل هذا في بيتنا؟ يكاد لا يتوقف عن المجيء والدخول علينا حتى ونحن في حل من أنفسنا؟!

– عمك!!. هذا عمك! يأتي ليطمئن علينا.. عيب هذا الشك.

– ولكنك في مجتمع لا يقبل هذا.. هذا أمر يسيء إلينا، ولم نعد نُحترم بعد بين الناس!

– أنا لست صغيرةً يا عهود.. أنا لا أفعل الحرام، واحترم عائلتي وسمعتي.

– القياس الصحيح أن تَرَيْ عين الناس فيك.. لا عينك أنتِ في الناس.. لم يعد أحد يرانا ويزورنا.. الناس «تُوَشْوِش» وتهمس، والشك نصف الحقيقة! بل أحياناً قريباً منها.

– كُفِّي.. لا تشغلي خواطرك بمثل هذه الأمور، أنا أعرف كيف أتصرف.. وأنت مالكِ وعمك؟ ألم يكن لطيفاً معكِ؟ ويضحك في وجهك ويقدم لكِ الهدايا؟..

– أضحكتني يا أماه!. هل تعرفين؟! أشم رائحة عمي الكريهة قبل أن يطرق باب بيتنا، إنه رجل صاحب خطيئة، تزوج قبل والدي بسنوات بفتاة قد وقع معها وحملت منه بولده ذاك الذي اسمه أمجد.. والآن تحت أي حجة يتردد على بيتنا؟!

– غريب هذا الأمر منكِ... لو كانت هذه الغَيْرَةُ من ابن ذكر لوجدت له عذرا.. ولكن من أُنثى مثلك لا تقع في الحسبان!!

ذات مساء أقبلت أمي إلى غرفتي وبين يديها تحمل سفرة عليها بعض الكعك وفنجانين من القهوة، وجلست بالقرب مني، عرفت أن في الأمر شيء يشغل بالها تريد أن تقوله، إلا أنها بقيت لحظات لم تجد لذلك منفذاً للخوض فيه، رفعتُ رأسي وأقفلتُ كتابي وبادرتها قائلة:

– ماذا يا أماه؟ ما هو الأمر الذي يشغل بالك وتريدين أن تخبريني به؟

– صحيح... عهود.. أنت تعرفين أن والدك مات ولم يترك لنا غير هذا المتجر الصغير – هذا المتجر لا يكفي مصاريفنا، وما يحتاجه هذا البيت الذي يأوينا... هذا كل ما تركه لنا وما ورثناه عنه.

– فيهما الخير والبركة، كيف أحسستِ بهذا؟ ومن قال لك ذلك؟ حياتنا ومعيشتنا كالناس.. لا شيء ينقصنا، أنا سعيدة «وفرحانة».

– والبيت لا بد أن يكون فيه رجل، أنتِ وأنا امرأتان وكلام الناس كثير!

– آه!! هنا منبت الداء.. هنا مربط الفرس كما تقول العرب، قلتُ هذا مراراً يا أماه.. ولكن لِمَ تغيرتِ الآن؟ إذن بيتنا يحتاج إلى رجل! أنتِ تحتاجين إلى رجل؟!

– إلى زوج..

– تُرى من هو ذاك الزوج الذي يريد التقرب إلى بيتنا؟ عمي بدون شك.. ترينه يريدني أنا أم أنتِ؟!

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. استغفر الله.. كيف يريدك أنتِ؟ وأنتِ ابنة أخيه؟ هذا حرام لا يجوز شرعاً ولا عند الناس.. استغفري.. استغفري الله حتى لا ينزِّل علينا صاعقة تحرقنا.

– عمي رجل متزوج، له زوجة وأولاد.. وابنه أمجد في مستوى عمري، وأنتِ أكبر سناً من عمي، وهذا لا يجوز اجتماعياً!

– أنتِ قليلة الأدب، هو رجل ويجوز له شرعاً حتى أربع.

– الناس لا تعرف من شرع الإسلام إلا ما يناسب ميولها ورغباتها!

نهضت من مكانها وتركتني أموج في غيمة من الغيرة والحقد.

❁ ❁ ❁

بعد أسبوعين تقريبا من ذلك الحوار الذي دار بيني وبينها، جئتُ هنا لزيارة خالتي في بنغازي، وعندما رجعت بعد أيام، وكان الوقت مساء، وكنتُ مُتعبة، دخلت إلى فراشي مبكرة.

استيقظتُ ليلاً وقمت لأتناول شيئا، ولكن ما كدت أخطو حتى رأيت غرفة أمي مضاءة، ومن خلال نافذتها تصدر ضحكاتها بنفس طويلة، وصوت رجل لا يظهر بوضوح. عدت أدراجي وبقيت مُسَهدة حتى الصباح وبعد الشروق رأيت عمي خارجا متأنقا ورائحة «البارفيوم» تموج ويِعج بها الهواء وينقلها إلى كل أركان البيت.

تزوجت أمي من عمي، وصار رجل البيت. عمي.. صاحب طبع شديد.. عصبي.. أناني.. طماع.. لئيم. لا يقوى على ضبط نفسه أمام النساء! حاول أن يتقرب مني ويجعل لنفسه مهابة ومكانة خاصة، وبيده مفاتيح البيت، ولكني رفضت ذلك، إن هو إلا رجل لعوب منحط! حاول قهري وإذلالي ومنعي من الذهاب إلى المدرسة بحجة أن المدرسة مكان لا يليق ببنات العائلات! وأنني سوف أصبح زوجة لابنه أمجد، إلا أنني أوقفته عند عتبة البيت:

– أيها الرجل.. أنا لا أعترف بعمومتك، وإن أمي لا تملك من الإرث إلا أقَلَّه وباقي ما تركه والدي فهو يخصني أنا.. إما أن تقف عند حدك أو تأخذ زوجتك وتخرجان بعد أسبوع.. سبعة أيام.. سبعة أيام لا غير!

– قلتِ له ذلك وجهاً لوجه؟ ألم تخجلي؟ موقف مثير حقاً.

– أجل يا مرضية، لِمَ الخجل في الحق؟ السكوت اعتراف بالباطل وتضييع حدود في مثل هذه المواقف.

– ولكنه رجل!

– وإنني امرأة!. إذا كان هو رجل عليه أن يعترف برجولته على نفسه وعلى غيره في كل المجالات. فالرجولة مثل عليا ومكارم أخلاق...

– ولكنه أسلوب شديد.. ذلك الذي صدر منك.

– بل سديد.. عليكِ أن تدركي.. الأب له أسلوب ومعاملة، الزوج له أسلوب ومعاملة، كذلك الشقيق والأم، والأخت، والعم، والخال، والجار، وأهل الطريق، لكل واحد منهم أسلوبه ومعاملته ما دام في حدود الحق والنظام والمعاملة المشتركة والتآلف الاجتماعي الذي نص عليه الإسلام.

– وهل خرجا من بيتك؟

– انقضت ثلاثة أشهر، ثم طفقت المؤامرات تحاك ضدي، تُؤَلف وتَعبّر من طرف عمي وتسلك وتُحاك من طرف أمي، استغرب وابتسم حزناً.. «حتى أنتِ يا أمي؟! ما أغرب النفس البشرية! تحرميني من الطعام وتسجنيني في البيت ثلاثة أيام وتذهبين إلى مديرة المدرسة وتكذبين وتنسبين لي بهتاناً لا يتجرأ عدو أن يلصقه بعدوه.. إني فتاة سيئة الخلق، أتدرج في غمرة الظلام إلى مواقع تُضاء في الليل بلون أحمر، مع أخريات وآخرين! وإني!. وإني!. وإني! وكثير وكثير، وآخر الأمر طلبت من مديرة المدرسة أن تطردني وتسوِّد ملفي برسالة تهمة بحبر لا يُمحى!».

في إحدى العشيات، وبينما كنت استعد للدراسة والمراجعة سمعت عمي يتكلم ويتجه صوته نحوي وأنا في غرفتي، دخل ولم يطرق الباب، وربما كنت في لباس لا يستر إلا ما بيني وبين نفسي، أقبل نحوي غاضباً وقال:

– «إذا كنتِ عهود فأين عهدك؟ لِمَ تكذبين عليّ وعلى أمك عند الناس؟...»

لم يُنْهِ عبارته حتى امتدت يده وصفعني. وقفتُ وكأنني في حلم عجيب، نظرتُ في وجهه بعين فاحصة متأملة.. «أنت عمي؟! أنت وباتي جئتما وولدتما من رحم واحد؟ إذا صفعتني عن ذنب اقترفته فهذا من واجبك، وعليك أن تربيني.. أما إذا كان الأمر غير ذلك، فأنت أقل من أن توصف بصاحب عائلة أو رجل، عليَّ أن أصفك بأكثر من ذلك ولكنّ مروءتي تُلزمني! فلِمَ ضربتني؟ بعينك هذه وبيدك هذه هل تعامل ابنك وابنتك بهذه اليد التي صفعتني بها؟ لا أظن ذلك.. إني لا أسامحك يا عمي ويا زوج أمي ويا صاحب البيت، ولك أيضاً، لم تصنع عيناً ترى ولا يداً تتحرك ولا رِجلاً تمشي.. في النهاية.. أنت ضعيف! وهذا أول ما توصف به» . «يا للعفن.. إني ابتعد عنك» .. قلت في نفسي مزدرئة، وعيناي تتابع انطباعاته على وجهه: «ابن أي ساقطة أنت؟! لا تحلل ولا تحرم».. أسوأ ما في إنه، لا يشعر بشيء اسمه نسبه وأهل قربي.. لا دين ولا بلد ولا وطن.. يقتل لأجل مصلحته براءته تحطمت ورجولته صافت، وصار شريراً. وهو من فصيل «إذا أكرمت اللئيم تمرد».

أخفض عينيه إلى أسفل.. وخرج.

– لقد ذهب بنا الليل بعيدا يا مرضية، لا تنسي أن الصبح قريباً.

– أتحسين بهذا؟

– هذه ساعتي تخفق أمامي كخفقان قلبي.

– من تنتظر أيها الساهر الجميل؟ لقد فات وتقاصى عنك الذي تنتظره، هذه محابري قد جفت وأقلامي طواها القِدم، وكلّت.

– لن أتوقف أيها الملاك، حتى وإن أمسى الليل يغالبه النهار، أناديك بكل حناجري، وتخضع لأقوالك مسامعي. يا ساعياً في الدجى الجميل.. إنّ الليل لم يكن قاتم السواد!

2

ما كاد الظلام يهيمن، وأخلو إلى نفسي، مستندة على وسادة فراشي، والكتاب في يدي، حتى طرقت مرضية بابي ودخلت بتحية المساء وجلست بجانبي تفرك يديها..

– أوه!. الدنيا برد يا عهود، أكاد أتجمد هذه الليلة!

– إذن من المفروض أن تبقي في غرفتك حتى لا تصابين.

– وهل أترك شهر زاد؟

– ها.. ها.. ها.. يا «عبيطة» تريدين زمني القديم ومعرفة أسراري؟

– معاذ الله، أنا أحبك يا عهود وأعطف عليكِ من جَوْرِ أمك وعمك، ولكنك تعجبينني كما تقولين.

– أعرف.. أعرف، مجرد عبارة ممازحة فقط.

❁ ❁ ❁

دخل أمجد مسرح اللعبة، وصار يتردد كثيراً على غرفتي، ويتقرب مني، ويحاول أن يلمسني ويضع يده فوق يدي وينظر باسما إلى وجهي، ويحاول أيضاً أن يكون خفيف الظل جيد الطُّرفة، ويطلق عبارات على عواهنها لا تمت لمحور حديث متناول، ويقلد حركات أبطال الأفلام المصرية. كان يفعل ذلك من أجل إضحاكي تقرّباً إلى قلبي وتحريك شعوري

نحوه! إلا أنه لا يجيد شيئا، فكنت أضحك عليه بدل أن أضحك منه، إنه لا يجيد شيئا، ولم أفكر فيه مطلقاً حتى وإن بقي وحده يجلس على حافة الأفق!

قالت أمي ذات يوم:

– «إنّ أمجد ابن عمك شاب وهيئته «تزهي العين» ، حافظي عليه، لا تضيعيه، فإن الباحثات عنه كثيرات.. قد يرتكب طيشاً! لا تمنعيه، وهو في النهاية زوجك! »

ذات مساء دخل غرفتي دون استئذان يضحك ويمسك بيدي قائلا:

– أنتِ لستِ من هذا الجيل إذا لم تنهض وتراقصيني وتضميني إلى صدرك وتضعين شفتيك على عنقي وتسمعين حوار قلبي مع قلبك.

– من قال لك هذا؟

– فريد الأطرش في فلم لحن الخلود.

– ومن الذي دفعك إلى غرفتي في هذا الوقت؟

– ماما مريم.

– أمي..؟! أمجد اجلس.. أنت ابن عمي، أنت شاب وجميل والزمن طويل أمامك، والزواج في هذا العمر لا ينفعك، وآخر الأمر فهي مقادير، فلا تهتم بهذا الشأن. آمل أن تفهمني وتقدّر ظروفي، أنت غرَّروا بك ودفعوك إلى هذا وليس بدافع منك.

– أنا أحبك يا عهود، أنت جميلة.. جميلة جداً، مثل ليلى فوزي وليلى طاهر ومريم فخر الدين وصباح، أنت أجمل من نساء السينما كلهن، ولا أحب غيرك وأريدك أن تحبيني.

– إذا كان الأمر عندك لا يتعدى هذا.. ربما يحدث، وسوف تحفل بنا الأيام وأتزوجك. ولكن الذي أطلبه منك أن تبتعد عن هذه اللعبة الخبيثة التي تتحرك خيوطها لتلتف حولي وتقيد حركتي، إنني في صراع.. صراع بين الحق والباطل، بين الفضيلة والرذيلة. هذا البيت بات نسيج عنكبوت فتخلص من خيوطه المدمرة وابتعد إلى الفضاء الرَّحِب واستنشق هواءً نقياً، أرجوك ابتعد، اذهب مسرعا ولا تلتفت إلى الوراء حتى لا يلحق بك الأذى كما حدث لقوم لوط.. هيا هيا اهرب بسرعة!

– لِمَ تطردينني؟

– أفهمني جيداً، هذا ليس بطرد، كيف اطرد أمجد العزيز؟ لأني أصارع اثنين فربما يجهدني الثالث الذي هو أنت.

– من هما؟

– امرأة أبيك التي هي أمي وأبوك الذي هو عمي، أرجوك لا أريدك أن تتلوث، وأنت في هذا العمر النظيف، في مسعى لا يعود عليك بخير.

– أخبرتني أمي كثيراً عنهما، ولكن أنت لم تذكرك بسوء ولا تعرف عنك شيئا!

– اذهب إلى أمك ولا تعد إلى هنا، وتابع دروسك أفضل لك وأنفع حتى تكون رجلا شهما متعلما تعين على الخير ولا تساعد على الشر!

– ما هو هذا الشر؟

– رغيف حرام مدهون بالخبث والنصب، وخبيث يسعى إلى خبيثة.

– أمك خبيثة؟!

– أقول لك كما قلت فيما سبق، لا تقتنص العلل، امسك بنفسك وأرفع ثوبك عن مواطن الوحل، إن سنك في مثل سني إلا أنك ما زلت صغيراً عن مثل هذه المضامين وهذه المضامير.

۞ ۞ ۞

كان ذلك يوم خميس والوقت ضحى عندما أقبلت مديرة المدرسة، نظرت إلى الفصل نظرة شاملة ثم وضعت عينيها على وجهي وعلى تعابير وجهها مسحة الحنان، أشارت بإصبعها لآتي إليها وقالت:

– «استأذن يا أستاذ، الطالبة عهود».

رافقتُها حتى مكتبها، هناك وجدتُ «بوليس» وبوليسة، نظرا إلى وجهي ثم سلما عليّ وقال البوليس:

– آنسة عهود هل ترافقيننا إلى المركز من أجل مساءلة بسيطة ثم تعودين؟

– إلى المركز؟! ومساءلة بسيطة؟ وأنا طالبة؟ أحس أني لست نائمة وأني لا أحلم.. تُرى ماذا بعد هذا؟! هل ما تقوله حقيقة؟!!.

– لا تستغربي يا آنسة.. هذه أمور تحدث للناس كل يوم!! وأنت ما ترْين؟ هل تذهبين معنا؟

– طالما أنكما جئتما من أجلي من مركز الشرطة، أذهب معكما.. وأسلم أمري إلى الله.

– هل تشعرين بالخوف؟

– لا.. لا.. بل بالخجل!

– لا.. أبداً.. البوليس جهاز مُنظِّم ومُنظَّم، مثل أي جهاز في الدولة.

– أنا أحاور نفسي وأشتكي لها حالي.. تُرى ما يفيد نظاما وأنا منساقة إلى خطأ مُدبَّر؟ والحبكه أخذت تتحرك وتدور.

اصطحبتني المديرة حتى المركز وقالت:

– «يا أفندي هذه مسئوليتي، ومسئوليتك. فالحذر كل الحذر!. وآخر الأمر أنا لست بسيطة! واعتبر أن الناس على بينة».

أُخذت إلى مكتب، أرى أن صاحبه برتبة ضابط جالس خلف مكتبه عندما دخلت، تظاهر بأنه غير مبالٍ بدخولي وأنه يبحث عن قلم أو ورقة، ثم نظر إلى وجهي مستغربا وقال:

– تفضلي.. «شن فيه»؟

– السلام عليك ورحمة الله.. أنا ما جئت إليك، وإنما جيء بي.

– آه.. أنت الطالبة عهود.

نظر إلى هيئتي نظرة متفحصة من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، لقد صورني تصويرا فوتوغرافيا كاملا، ثم قال:

– اجلسي.

نظر إلى الورقة التي أمامه «محضر يخصني» قال بأسلوب منحل:

– أنتِ عهود!! الـ.. الـ.. الاسم.. اسم الأب غير واضح.

– باتي متوفى يا أفندم، باتي متوفى.

– الله يرحمه، أنا أبحث عن وضوح اسمه وليس عنه.

– لو أنه حي، ما أشقاك حتى تبحث عن قراءة اسمه. ولكن بإمكانك أن تقول عهود مريم، إنّ أمي حية واسمها مريم.

– ماذا تعني؟

– تفسيري ليس مُركّباً وعباراتي واضحة.. باتي رجل.. وأنا الوحيدة التي فقدته، كان ديمقراطياً أكثر من اللازم، وهذه غلطته الكبرى، كان من المفروض أن يكون خشنا حازما في جوانب كثيرة في بيته، التمادي في المداعبة وفرد جناح اللين، يجعل المرأة تتمرد على ما هي عليه، ويكسبها خصالاً جديدة!

– حتى وإن كانت متعلمة!!؟

– هناك خصال، عند أصناف من البشر لا يؤدبها العلم ولا القيم.. عندها..... أ.. ب. سر.. فوط...

– ماذا كنت تقولين؟ لم أسمعك.

– لا، لا.. مجرد كلمات طافت على لساني، أستغرب كيف تتجمع سحب المصائب من أسفل إلى أعلى ومن جانب إلى آخر؟.

– خفتِ يا عهود؟

– لا يا سيدي إني غير خائفة، ولكني أشعر بالعجب والخجل، أحداث تجاوزت مرحلة الخوف. كيف يخاف الغريق من البلل؟ الجهل يا سيدي، الجهل سيد الكفر، كما كان يشرح لنا الأستاذ قبل مجيئي إلى هنا.

– المهم لا تذهبي بعيدا.

فتح درج مكتبه وأخرج منه هذا الذي في يده، وينظر في وجهي قائلا بكل ثبات:

– انظري إلى هذا!! ما هذا يا عهود؟!

– إنه عقد.. عقد..

– من النحاس؟

– والله أنت أدرى به، أنا لم أفحصه حتى أميزه، فهو في يدك.

– إنه عقد من الذهب الخالص.. هل تحبينه؟!

– سؤالك ليس في محله ولا أعرف كيف أجيبك، لا شك أنه جميل، وكل الناس يحبون الذهب الجميل، ولكن ما وراء كل ذلك؟ أرى أن المسار لا يجب أن ينحني.

– تتكلمين منطلقة النفس ثابتة اللسان كأنك لا تعلمين شيئا، هل رأيتِهِ من قبل؟

– هل رأيتُهُ قبل الآن؟ لا أذكر.

– تأمّليه عن كثب.

– رأيته بعيني ووزنته بعقلي فلا داعي للمسه.

– هل تتمنى أن يكون لك؟ أو أن تشتري مثله؟

– هذا يتوقف على الظروف، ولكني لا أميل إلى مثل هذه الأشياء، على الأقل الآن.

– حتى أن تشتري مثله؟ إنه ليس جديدا، رائحته طيبة تنعش النفس.

– نعم يا سيدي؟

– أنت متعلمة واسعة الإطلاع، ثابتة على الرد، هكذا أحس بوجودك.

– هذا من فضل ربي.

– هل تُصلّين؟

– وأصوم وأقرأ القرآن وأسبِّح أحيانا وأتخاطب مع الكون!

– هل تعرفين الله؟!

– من أسئلة عن العقد إلى أخرى عن الله! ما هذا يا أفندي؟ نعم لقد أجبتك قبل ذلك

وقلت إنني أتخاطب مع الكون كلما توقفت نفسي على ذلك وضمتني عجائب الخلق إلى تراكيب ذراتها. عبرتُ الزمن وتخطيتُ ألاف القرون- وأني أعرفه.

- إذا كنت تعرفينه فأين هو؟!

- كيف أجيبك يا سيدي؟ أأنت عازم على الجواب؟ وترى سؤالك سهلا على مستوى اللغة؟ من تريد؟ وما تريد؟ إنّ هذا من علم الغيب. الله لا يُرى هكذا كما أراك أو تراني- بالبصيرة النافذة والإيمان- إنه فوق مستوى اللغة والحواس.

- إذن أين يوجد الله؟!

- على الرغم من أن الزمان والمكان تحت حكمه، إلاَّ أنهما مفصولان عن عرش الله، فالله فوق مقام الحدود، الله موجود فيك أنت وفيَّ أنا، في الجبال والبحار، وفي كل كائن في هذا الكون، ورحمته وَسِعت كل شيء، وليس كمثله شيء، لا أدري ما تريد؟!!

- هل لديك أعداء؟

- أعداء!! أعداء.. أعداء؟..

- هل تظنين أن أحداً يكرهك ويتمنى أن يعيبك ويدخلك السجن؟

- ماذا أقول، أمر محير، ماذا أقول؟. ربما أيها الضابط.

- فمن هو؟

- رجائي أن تلغي هذا السؤال وأنا أتحمل تَبِعَتُهُ.

- كيف هذا؟ نحن نسأل من أجل الوصول إلى الحقيقة، في هذه الأمور نحاول أن نبتعد عن العاطفة بقدر الإمكان، أمر فيه سجن ومس بالسمعة، وربما تلحق بك تُهَمَة تشوهك، لا سمح الله.

- لا يهم، أعرف أن الله معي، ورحمته وَسِعَت كل شيء، كما قلت سلفاً. حسبي الله ونعم الوكيل.

- ولكنّ الله لا يعاونك إذا سكتِّ على الباطل، أريد أن أساعدك يا عهود، لا أتمنى أن تتضرري.

– وإن قلت لك هذا وهذه.. أو هذه.. من تأملي أن تزيد النار ولا يتوقف الأذى، أنا أعرف، ولكن ما هي التهمة؟

– أنت ذكية ومتعلمة، ألا تعرفين ما هي التهمة الموجهة إليك حتى الآن؟ هذه القطعة الذهبية وُجِدَت في حافظة كتبك!

– من ذي التي بحثت في «شنطتي» حتى وجدت هذا العقد؟

– هذا من اختصاص عملنا يا عهود، كيف أذكره لك؟ إحداهن جاءت به منذ ثلاثة أيام. لمن هذا السوار؟ لأمك؟ لأختك؟ لإحدى صديقاتك؟ أو معارفك؟ ربما هو لأمك.

– أولاً، لم أر عقداً مثل هذا لأمي من قبل، وبالتالي هل أسرق سوار أمي!؟ لمن أفضله أكثر من أمي؟ ولمن أقدره وأحبه أكثر من أن يكون لأمي؟ وفي النهاية أنا ما زلت طالبة لا أحتاج إلى مثل هذه الأشياء الكبيرة.

– صحيح.. المفروض هكذا تجري الأمور، لكنه وُجِدَ في حافظتك بين كتبك. فهل تقولين الحقيقة وأُقفل الملف ونحاول الإصلاح بينك وبين أمك؟ هيا ماذا قلتِ؟

– ماذا..؟ ما تريدني أن أقول؟

– الحقيقة.. الحقيقة.

– ما هي الحقيقة التي تريدني أن أقولها؟ هل أكذب على نفسي لأُرضيك؟ وأقول لك إنني سرقت عقد أمي؟ هذا نص يشينني ويعيبني، لا جواب عندي يا سيد إلا الذي قلته. إني لم أسرق هذا العقد وإذا وُجِدَ في حافظة كتبي فهي مكيدة فقط.

– هل أمك تُكيد لك؟ هذا مستحيل، بل أنا أستغرب كيف جاءت إلينا تشتكيك؟!..

– لا أجد ما أقول غير هذا.

– إذن تبقين تحت الحجز حتى يوم السبت، لا مفر من ذلك يا عهود.

– حسبي الله ونعم الوكيل..

إذا كان قدري دفعني إلى ذلك فلا مفر، فلا أنت تعزم ولا أنا أرفض، إنه المسار الذي يجري مع حياتنا ولا نرى خطواته، قال أبو تمّام:

«مشيناها خُطىً كُتِبَتْ علينا ★★★ ومن كُتِبَتْ عليه خُطىً مشاها»

اتخذتُ مكاني في إحدى الغرف الكبيرة، موربة الباب، وهناك شرطيتان تحرسان الجناح، وبعض السجينات، لم أتضايق من هذا الأمر، أخذت محفظتي وتناولت كتبي، وبدأت أقرأ وأطالع وأراجع، وآكل ما يُقدم لي. انقضت ليلة، وراجعت كتابا بأكمله، وحل الصبح. جاءت شرطية بالفطور، دخلت كمن يدخل بيتا مهجورا، نظرت في وجهي بازدراء، ثم رجعت، وقبل خروجها ناديتها وطلبت منها أن تأخذ ما أتت به، استغربتْ وقالت:

– ألا تريدينه؟ –أتريدين شيئاً أخر!!؟... لدنيا أصناف أخرى!!

– لا.. لا آكل طعاما جاءت به أيدي جسد بلا روح هل أنت ليبية؟ مستحيل.

– غريبة!! ما معنى هذا؟ كيف تجرُئي بهذا الكلام؟ ألا تعرفين أين أنت؟ ألا تعرفين من أنا؟

– المفروض أن تنزعي هذه الملابس، أنت لست إنساناً، أعرف أنك أكبر مني سنا إلا أنك أنت الداخلة إلى الغرفة، كان من الواجب أن تُلقي التحية، التحية لها وقع ومعنى مفرح، تثبِّت الثقة في النفس وترفع الهمة بين الناس وتبسط السريرة والخاطر، وتقلل أو تخفف من ثقل المصيبة.

– «هيا ما تكسريليش» رأسي بهذا الكلام، أنت لست من الناس، سارقة ومقبوض عليك، إذا كنتِ سارقة من أمك أمَّال مع الناس والجيران كيف؟!

– حتى وإن كنتُ مثلما قلتِ إلا أنني مسلمة وليبية، ومن غير المعقول أن تحكمي على الخطأ من تلقاء نفسك، هذا سلوك غير عادل في مجال حقوق الإنسان، أنا لست مقبوض علي بل أتيت بمحض إرادتي ولم تثبت إدانتي ولن تثبت، أقول لك هذا لا من أجل إثارة غضبك وتأليب انفعالاتك عليّ ولكن لكي أُعَلِّمك درساً في الأخلاق. خذي طعامك وانصرفي وعندما تسمعين الآذان أنصتي حتى «لا إله إلا الله» لعل الله يبعث في نفسك بصيصاً من النور ويحولك إلى نسل بني آدم.

جاءت رئيسة المجموعة من بعيد حازمة ويبدو أنها متحاملة وعندما رأتني غير مبالية وكأني لا أشعر بوجودها واهتمامي، كله منصب على صفحات كتابي، تلاشى ذلك الأثر بالتدريج، دخلت تنظر إلى وجهي واستندت إلى الباب وقالت:

- صباح الخير يا شابة.

- صباح الخير يا أفندي

- نظرتُ إليها باسمة وقلت: هكذا تتعامل الشرطة مع الآخرين، الشرطة يا سيدتي ليست ملابس وأوسمة وحمل عصا الصولجان ورفع الأنف عن الآخرين بقدر ما هي نظام، أخلاق، ثبات، عمل ومسئولية لا يعدلها ولا يقدِّرها ميزان، إنها عين الله على الأرض في النور وفي الظلام، في الجَوْرِ وفي السلام، في الفقر وفي الغنى، ولذلك هي حارس المجتمع الأمين. الذين يأتون إليكم.. المجرم الخارق، اللص الحاذق، المظلوم الساذَج والمغفل المعتل، نماذج مختلفة ومنشورة تحت الشمس، ولكن أغلبهم مرضى يحتاجون العلاج والتعامل معهم بصدق وأمانة.

فتحُ بابٍ لمشروع كبير لبناء مجتمع ناجح سعيد، تلك النماذج التي ذكرتها وُلدوا كلهم ونفوسهم طاهرة بريئة وملابسهم نظيفة، ولكن تقلبات الأيام وعدم وجود الرعاية الدقيقة والمسئولة هي التي يقع عليها اللوم في صنع مثل هذا وذاك!

الجلوس على عرش الدولة والتحكم في مسار الإدارة وضبط شئون المجتمع ليس سهلا على النبيل الأمين، فأرجو من الله أن تكون هذه العبارات قد استجاب لها ضميرك الواعي نوراً ورحمةً وذكرى للعابرين.

- اللهم آمين يا رب.. أشكرك يا شابة، أشكرك. هل آتي لك بفطورك؟

- أجل.

3

حل نهار يوم السبت، طُلِبْتُ إلى رئيس المركز، نظر إلى وجهي ملياً ووجهه بين كفيه، التفت يساراً، تنحنح ثم بدأ في القول:

– ماذا جرى في الأمر يا عهود؟ لابد، لابد وأنك وصلت إلى قرار. صداع في رأسي فلا تتعبيني!

– ماذا في الأمر يا أفندي؟ ها قد قضيت يومين كاملين بلا حجة، فلا أعرف ما الذي تسألني عنه. وأرجو أن لا يكون صداع رأسك.....

– أن تعترفي... هيا...

– لقد قلت ما فيه اعترافي، ولا أدري من الذي تصدَّع رأسه.

– لمن؟

– لك أنت.. قلت لك إني بريئة من ذلك الفخ، وأن لا صلة لي به على الإطلاق.

– إذن لِمَ بقيتِ هنا يومين كاملين؟!

– أنا التي أطرح هذا السؤال، أنا التي أستفهم بلسان واعٍ وقلب مفتوح، لست أدري.. هذا يعود إلى مسئوليتك وضبط أمور إدارتك.. أنا التي أسأل.

– عهود.. لدينا أساليب لا أريد أن ألجأ إليها! آملا اعترافك بسلام.

– لقد قلتُ لك من قبل إني لا أخاف، حذاري أيها الضابط! لا تعتبر مركزك هو آخر باب ويُماط اللثام على ما جرى خلفه.. لا.. حذاري! أنت من لحم ودم وكذلك أنا، أنت بوليس تحافظ على النظام والأمن، أرجو ألاّ تتدخل في أمر فوق حدود مسئوليتك. أنا قلت ما عندي وليس عندي بعده ما أقول. إني لم أسرق، ولا أعرف إلاّ معنىً لهذه الكلمة، ولكن إن أردت أن تتبجح وتتفاوت وتتعامل مع الأساليب.. فهذا!! واعتبره من جانبي قضاءً وقدراً.

– لكن من واجبي أن أحقق وأحمي حقوق الناس.

– أنت لم تحقق إلا معي وكل علة ليس لها جانب واحد، هناك أطراف أخرى عليك أن تحقق معها وبقدر ما أنت تريد حماية الشاكي لا يعني هذا أن ترفع طرفك عن المتهم، هذا عمل تعرفه أكثر مني، ولكنك لا تريد التعب والبحث عن الحقيقة، وهذا في رأيي تقصير وخيانة أمام الله وضميرك والناس.. ولا تدري الحجة على من تكون!!

– والله!!؟ معادش نعمل ولا نتحرك إلاّ من أجلك، هكي تريدي يا بَيَّه؟!

– من الواجب والمفروض والقانون أن يكون هذا يا أفندي، يبدو أنك ترى القضية هيِّنَة بسيطة؟ هناك عوامل مهمة وخطيرة لا يُستهان بها، وإن ظُلِمت فلن أسكت سأطالب بحقي حتى وإن جاروا عليَّ ودفعت حياتي ثمناً له، لن أسكت عن حق أراه يُنهب مني! والذي يذهب بالظلام، وجاء بالنور..لن أسكت..

– هذا ما هو مكان محكمة، قضاة ومحامون، إنه مكان للتحقيق فقط.

– بل هو مكان للعدل وإثبات حقوق الناس من الناس، أليس كذلك؟

– بلى..

– المقبوض عليه بريء ما لم تثبت إدانته.

– بهذا الأسلوب المتصعب يبدو من خلاله أنك مُدانة!

– لا حول ولا قوة إلاّ بالله، يؤسفني أن أسمع منك هذا يا رئيس المركز، الله يدري وأنت لا تدري، والذين نصبوا لي الفخ يدرون أيضاً!

– «وأنا شي دخلي»؟.

– يجب أن يتسع مجال التحقيق، لأن الأمر بهذه الصورة لا يرضيني، والآن عليك أن تتدخل، وتفسح المجال وتتحمّل..لأنك مسئول على أمانة..

وبينما نحن في شدٍّ ومدّ حاول عدة مرات الأمر بإخراجي من مكتبه عُنوة، رنّ جرس هاتف المكتب، وتبادل الحديث من خلاله لحظات، ثم قال:

– ادخلهما واصطحبهما إلى مكتبي، وأنت يا عهود ارجعي إلى غرفتك حتى نشعرك بأمر آخر.

قبل أن أغادر باب المكتب التقيت بالمطلوبَيْن اللذين دعاهما الضابط في الهاتف.. يا الله إنهما أمي خديجة، امرأة عمي الأولى، وابنها أمجد، شرّعت يديها وأقبلت تضمني إلى صدرها باكية متحسرة، أمسكت بيدي وأرجعتني إلى مكتب الضابط وقالت مضطربة الصوت:

– السلام عليك أيها الضابط، لا تواخذني، صوتي ودموعي.. وكلامي غير واضح.. أنا ما سمعت بحبس عهود إلا البارحة، وعرفت السبب، الله يهلك الظالم.. العقد، العقد الذي في مكتبك يا سيدي هو ملكي، وعلامته حَجَرة النجمة الصفراء في وسطه. الذي سرقه مني هو زوجي، عم عهود، وأعطاه لزوجته، أم عهود، التي هي ضُرتي، وهي التي وضعت العقد في شنطة عهود حتى تُسجن وتتشرد وتتخلص منها!

– ولِمَ تتخلص منها؟!

– لأنها تكرهها ولا تريدها معها في البيت.

– غريبة!

بعد ساعة ونصف أصبح عمي وأمي معنا في مكتب رئيس المركز.. سبحان الله كيف غامت السماء وأنزلت غيثها يلطِّف حر الهجير في هذا الظرف القصير؟! ما أقصر الطريق على الظالم – وما أوسع الدنيا على البريء.

إني أعوذ بك يا الله من شر اللئيم وكفر الزنيم وصهد الجحيم. كثير من نماذج البشر تراهم في مسار حياتهم المعتادة جبابرة عُتاة، زئير نمور وقوة أُسُود، ولكن تحت ظرف معين

يتلاشى فجأة ذلك العنف ويتحول إلى وهم وسراب، خنوع ومقام حَمَل وديع لا يسيطر على أعضائه ولا يتحكم في أقواله.. هكذا أرى عمي أمامي الآن، يلقي اللوم على أمي. إني أعوذ بالله من هذا الصنف، إنه من صنف اللؤماء!

بعثا إلي أكثر من مرة من أجل زيارتي لهُما في التوقيف، إلاّ أنني رفضت!

بعد أسبوع، وعند الساعة الخامسة مساءً، سمعت طرقات على باب بيتي، إنهما عمي وأمي، نظرتُ بتأمل شديد إلى وجهيهما، نظرتْ أمي إلى وجهي بسرعة خاطفة، وقالت:

– هيا افتحي.. شي تراجي؟

– لا تأمريني، هذا يتوقف على رغبتي، باب بيتي وأنا أتحكم في فتحه وإغلاقه، البيت بيتي والمتجر متجري. وأنتَ أيها الرجل ابحث عن مأوى تأوي إليه وزوجتك.

– هذا مُلك أخي.

– هذا مِلك باتي، أنت جئت مع أبي وأنا جئت من أبي، مَن أبلغ قولاً وأقوى نسباً وأقرب ملكاً أيهم؟ «مَن أو مع»، في هذا الشأن؟ ما رأيك؟ أريت؟! لن يُفلح الساحر حيث أتى!

أدخلتهما بعد وقوف وطول انتظار.. كادت أمي تهوى تعباً ومللا واضطراباً.

۞ ۞ ۞

القوانين لدينا أغلبها خارج حدود الناس، مُدَوَّنة، وأغلبها لا يُعمل بها.. معظم الناس تعرف واجباتها لأنها مقرونة بمرتب الشهري وعصا الحاكم، إلاّ أنها لا تعي حقوقها، لأن الحقوق تتوقف على رغبة الحاكم أو مريديه! «النظام على الجميع، وحرية الفرد مكفولة» قوانين مسجلة، ولكنها تحت سيطرة الأقوياء، فلو لم يكن ذلك.. فلا ظالم ولا مظلوم!

القوانين لدينا عبارة عن قصاصات ورق، تعني لمن يعني، ولا تعني لمن لا يعني. حتى النقابات وحتى الجهات المسئولة عن الحق والباطل والظالم والمظلوم، فإن المبدأ لديهم: الذي يعني هو الذي يعني، والذي...!

التشريع والقوانين لا تُؤخذ من أشتات ولا تُكتب بألفاظ مُبهمة، ولا تكون وليدة

الساعة والموقف، وحدات التشريع تُؤخذ من واقع المجتمع وبيئته، وتضعه أو تُسنَّه الفئة النخبة ذات الاختصاص المكين، يُمَيِّز ويُنَقِّح ويُحَمِّص، يُسخِّن ويُشوى ويُطْبخ.. ثم تخرج قوانين قريبة من إحساس المواطن، متكاملة في أدائها، تساند الضعيف، وتقوِّي الهزيل وترفع من شأن الوضيع، تُحني رأس المتكبر وتُلجم الغاضب وتربط النافر وتعاقب الظالم. ليس هناك قوانين عسكرية وأخرى مدنية.. الإنسان هو الإنسان، تربطه عواطف وسلوك، تفتح له أبواباً وتُلزمه حدوداً، فلا أدري من أين جاءت هذه القوانين العسكرية؟ إلاّ من الغرب الأوروبي، أو أن تقول مثلا: الأمير فوق مستوى القانون، فهو خارج عن حدود التُّهَمَة والتعامل مع الخطأ! هذه خصال غير حكيمة ومشبوهة، الكل تحت سماء التشريع، المجتمع مصدر التشريع ومن يُخالف يُعاقب، يُسجن ويُغرَّم أو يُعزل أو يُعدم.. حسب عمق التهمة، القوانين لا تتحرك إلاّ بأهلها. رحابة الفضيلة، دعاء الضمير وصوت الحق يُخرس نداء اللوم والمحاباة والمتواطئين.

هذا الكلام ليس من عندي، بل قالته فتاة مثلي، كانت في غرفة بالقرب مني في مركز الشرطة، إنها طالبة في كلية الحقوق، على الرغم من أنها تعيش في أكذوبة مثلي وتمر بأزمة نفسية قاسية، إلاّ أنها لا تترك وقتها يضيع سُدَىً، فالكتاب لا يفارق يدها والحوار المتبادل مع نفسها لا يتوقف. ما كادت تراني حتى أقبلت وتبسمت وحكت لي وحكيت لها، وأخذت تعلمني ما جَهِلْت وتذكرني ما نسيت. تدّرجتُ في خطاي وصارت عيني تتطلع إلى أعلى.

كتبتُ صحيفة اتهام وطلبت فيها محو التهمة وكتابة رسالة أسف واعتذار وردّ اعتبار وتعويضي ماديا عما جرى لي من إحراج وسجن ثلاثة أيام وليلتين وسمعة سيئة بين الناس، وإنه لمدفوع باهظ الثمن عميق الأثر! كنت قد فعلتُ ذلك ليس طمعاً، وإنما لجلي سطح المرآة لنعرف وقع وجدية القوانين ووضوحها، ودراية وشهامة من يتعامل بها.

عندما قدّمت الطلب للموظف ضحك وقال مستغربا:

– استرجاع حقوق!؟ قيمتك الإنسانية؟! وأنتِ ما ينقصك؟ هاأنت واقفة على استقامتك بكل اعتبار، احمدي الله على خروجك براءة، ليس لدينا شهادة بالصيغة التي تناسب طلبك يا عهود، أما ما بعد ذلك فإنك لا تحصلين على شيء.

العلة المنسوبة والمشوهة في وسط اجتماعي متخلف يصعب التنصل منها في وقت قصير!

رجعت إلى المدرسة، إلا أن رجوعي كان غير موفق، فالصفة القذرة التي أُلصْقت بي لم تمسحها شهادة البراءة ولم تقنع غيري كلمة المديرة التي ألقتها في مجمع الطالبات والمدرسين. بل زادت الأمر رسوخاً وشعرت بالتفرد والوحدة، وإني منبوذة كأني عليلة بعلة تنقل العدوى لمن يقترب مني: (ها هي السارقة جت، هاهي مشت، ها هي بتجاوب، هاهي تفكر، آهي جت المسجونة، باتت ليلتين البرَّه.. قالوا حتى أمها هكي..)!!

أيا أنت يا أيها المُنصت الساجي، هل ما زلت ساهرا معي؟

– أجل.. أجل ما زلت أنصت، والأبراج أخذت مدارا آخر والنجوم توارت متقاصية، وحلّت بدلها أخرى.

– تركنا المرفأ من وقت طويل، وتقاصت بنا سفينة الليل متوغلة في بحيرة الحَيرة والعجائب. إنها معزوفة يا مرضية، ولكنها لا تُطرب.

– أمر يدعو للحَيرة والعجب، كيف هذا الوجه الملائكي والجسد النقي يلاقيان هذا؟ ما أغرب هذا الزمان!

– بل قل ما أغرب هذا الإنسان.. المشكلة في الإنسان، في بني آدم.. الزمان لا يتبدل، أعرف أنك قد تعبت يا رفيقي، وتجاوز الليل ولم يبق إلا القليل منه.

– كلامك أشعار، صوتك نغم يحرك الشجون، أنت عازف مُلهَم.. عازف في الليل! فلا توقفي رسالتك ولا تتركي القلم والقوس حتى تشرق الشمس، تنتشر الأضواء ويتغلغل النور في النفوس.. ويُبصر الأعمى!

4

تنظر إليّ بعين مُحبة ووجه مرحّب كلما الْتقيتها، سواء في فصل الدراسة أو في أحد المستشفيات، لا أعلم سر هذا التجاذب وهذا التعاطف اللذان نشآ وترعرعا بيني وبينها، ساعدتها كثيرا في تعلم اللغة العربية وحادثتها عن بعض العادات والتقاليد القديمة وبعض المفاهيم التي ما زالت تتبادل وتتحرك في مجتمعنا.

في إحدى العطلات أخذتها إلى طلميثة وشحات وبعض الكهوف العجيبة، التي حفرتها يد الزمان في الجبل الأخضر وذهبنا معاً مع مرضية إلى حفلة عرس.

عندما أغيب يوماً أو يومين، أجدها تتحين وصولي بصبر نافذ، لا تغيب عني ثلاثة أيام حتى تزورني في غرفتي إذا لم أقم أنا بذلك قبلها، ونبقى نسمر، إذا كان الوقت ليلاً، ونتحدث ونتجاذب أطرافا من القول والحديث والطريف من الخواطر التي تشد كل واحدة منا بالأخرى. هي تجاوزتْ مرحلة الشباب، وبدأت حركة الزمن ومرور الأيام تحفر أثرها على وجهها المستطيل الجميل. أهدتني قميصا حريريا وقارورة من «البارفيوم» الرفيع وثلاثة جوارب.

في إحدى الأمسيات نظرتْ إلى وجهي بخشوع ليلي قائلة:

- عهود.. هل تجيبينني إذا سألتك؟

- وهل امتنعتُ يوما؟ هل سبق لي أن أحجمت؟ هيا إني استقبل سؤالك.

– عندما أنظر إليكِ لا تمتلئ عيني منك، ورغبتي لا توقف حنينها إليك، أنتِ لستِ من هذا الزمان، ولا أدري من أي عصر أتيتِ!

– مشاعر مُتبادَلة وأحاسيس كريمة يا سيدتي الحكيمة. وُلدت من أبٍ قد مات، وأم ما زالت على قيد الحياة، إننا من آدمية واحدة، وإنسانية لا يعلم جمعها بيني وبينكِ إلاّ الذي خلقك وخلقني، أنت حكيمة تمريض أسبانية جئتِ إلى ديارنا وأنا طالبة تمريض، وهنا التقينا.

– من أنا يا عهود؟ أسأل غيري لأفهم نفسي، ها أنا أجلس أمامك، انظري إلى شعري، وجهي، عيني، وتحسسي ذبذبات صوتي وخلجات نفسي، وأنهار الدم التي تجري في عروقي.

– أنتِ كوكب سيار وجد طريقه إليّ، أنتِ كراسينيا الأسبانية، ما زال يخيم على جسدك جمالا أصيلا وروحا تفيض بالإنسانية، على خدودك أخاديد، في عيونك تموج بحوراً، وربما محيط وراء محيط، لا أستطيع التوقف، معلوماتي محدودة وثقافتي متواضعة، فلا أدري ما تريدين؟

– مِن هذا الوجه الملائكي أحببت نفسي، من هذا الوجه الأسطوري اكتملت حلقة النغم واتسعت وتشعبت نسبية الموسيقي إلى ما لا نهاية. يا لهذه اللغة وهذه المفردات، التي صارت تتلاحق وتكبل بعضها.

– لا أفهم ما تقولين يا حكيمة كراسينيا؟

– أعرف أني أخاطب نفسي بصوت عالٍ، هكذا تعودت منذ زمن طويل يا عهود، إننا مرضى، لهذا نداوي المرضى، هذه كراسينيا يا عهود أنا قلم يتحرك ويسطر بلا أنامل، أنا شاهد عيان، سقطت ورقة التوت وتخلى أغلب الناس عن الكرامة، اصطحبتُ ممرضات، دخلتُ مستشفيات، وانتقلت مع أطباء، شاهدت أُناساً من كل الأعمار هاربين خوفا ويتضرعون من هول المعاناة ورأيت الآلاف يموتون في ساعة واحدة تحت نظري وهم يتشوقون إلى الحياة. شاركتُ في منتصف الحرب العالمية الثانية ورأيت من فظاعة التدمير وتمزق الأجساد البشرية وانتهاك حرمة الله فينا وانحطاط آدمية البشر، عندما أتذكر ذلك أيها الملاك أشعر برغبة في الغثيان ورمي ما في أحشائي خارجا. سنوات كثيرة مرت، حيث أجد نفسي أبتهل بعد كل صلاة أن يأخذ الله الأرض ومن عليها في طوفان عارم لا يبقي ولا يذر كطوفان نوح في هلاك قومه، ولكن الله لم يأخذ بصلواتي لأني من هؤلاء البشر الذين تلحق بهم اللعنة. إن غابات

أوروبا الزاخرة اليوم بالاخضرار والنمو السريع هي في الحقيقة من غذاء أجساد ملايين الموتى في الحروب الطاحنة التي لا عقيدة فيها ولا هدف من ورائها إلا الطمع وإلهاء الناس بوميضها وإلقائهم في لهيبها. الحروب الكبرى يشعلها الظلمة والحكام الضعفاء، ويصطلي نارها وجني دمارها وخرابها الناس العاديون، وهؤلاء هم ثلة من الجبناء تتحين الفرص الخطيرة، يأتون من الظلام كالخفافيش ويقفزون إلى الضوء كالذباب ولا أدري كيف أخذوا وتملقوا أمكنة محترمة بين العمالقة، بل تملكّوا عقولهم وجعل ظهورهم سلالم لكرسي الصولجان: ترك الحبل على الغارب يؤدي إلى الاستيلاء عليه وسرقته، الطِّيبة تؤدي إلى البلاهة والخنوع، وحَنْي الرأس تثير شراهة السياف لقطع أكبر عدد من الرؤوس! ملايين من الشباب والرجال الأقوياء، كذلك الأطفال والأمهات، ذهبوا بلا معنى، واقتصاد بالجملة تلاشى في الغبار، ومدن كبيرة متربعة على ميادين الحضارة، تحولت إلى ركام، تاريخ تمزقت أسفاره وموروثات في الدين والأخلاق تلاشت وأخذتها مياه الأنهار وأمواج البحار. فرانكو، سالازار، هتلر، موسيليني، وبلاشفة روسيا أمثال ستالين، وجنرالات اليابان. لعنة هذا العصر وملوثات الأرض، وطاويط وذباب نقلوا للبشرية أعقد الأمراض وأشدها فتكا. استفهمي مني أنا، لا تسألي أحداً، لقد رأيت ورأيت يا عهود، أين هم الآن هؤلاء الأقزام الجبناء؟ طبعا ماتوا، لكن أغلبهم انتهوا وهم على أفرشتهم الناعمة واعتبارهم الكبير.. يا خسارة! الناس لا تحكم بمجريات التاريخ لأنهم لا يستطيعون تجنب العاطفة في الحكم بنزاهة العدل وتقدير فروض الحق، فالمطلوب ألاّ ننسى. حسب قراءاتي لفصول من التاريخ، أن كثيرا من أصحاب الأنامل البارعة والأقلام السيالة لا يطلقون العنان لأصوات أقلامهم أن تقول ما رأت وما سمعت، وهذا كبح لمنطق وحساسية التاريخ وتربية الأجيال، إن فرعون وهتلر وستالين ما زالت أشرعة مراكبهم تتحرك خفاقة في ثقافة وتاريخ الأدب الاجتماعي، كان من الواجب أن أُذُنَ التاريخ لم تكن تُصغي إليهم. عندما يأتي الليل وتحيط بي الوحدة ويهيمن عليّ السكون، تداهمني غيوم عفنة ملبدة بغبار البارود ورائحة احتراق أجساد البشر، لو تدري كم ذبح فرانكو من الناس، وكم قتل هتلر، وكم أذاب ستالين من البشر؟ إن هؤلاء الذين ماتوا أغلبهم من الشباب، وإن لكل واحد منهم أمّاً وضعته وأرضعته وأدفأته واحتضنته في ليالي الزمهرير وأمدته بالطعام والشراب، وآخر الأمر يأتي خطاب يلوكه جرذ حاد النبرات يداعب أحلام البلهاء، يستولي على أرزاقهم ويخطف أبناءهم باسم الوطن العزيز والدفاع عنه،

ويقذفهم على نيران حروب طاحنة، والوطن منه براء ولا يمتُّ له بأدنى صلة عدا الكرسي الذي من فوقه تصدر بجاحته الهزيلة. هربتُ.. هربت بعيدا من واقعي الأليم حتى أصحو من إغفاءتي وليل هواجسي وشؤم حياتي وأحزاني، دفنت حبي وتلاشت آمالي وصار يدنو مني ليل الظلام والصقيع.. آهٍ ما أروع لون هذه السماء! إني أحب بلادكم يا عهود وأحب هذا الوجه الجميل، مثل هذا الوجه النبيل رأيته في البوسنة في يوغسلافيا المسلمة تدهسه سنابك الخيل، ما زلت أذكره، وهاهو يعود مرة أخرى وتجسده الأقدار في مقامكِ أنتِ، أنتِ معزوفة خالدة بكل مضامين النغم.

– هل ماتت..؟

– نعم، هشَّمَتْ وجهها ورأسها الخيل المندفعة، رفعت يديها تنادي تستنجدني، بقيتْ لحظات بين يدي تتلوى وتتأوه من شدة الألم حتى ماتت وهي بين ذراعي. كل اللحوم غالية الثمن حتى لحوم القَرَدَة والضفادع إلاّ لحم بني الإنسان، خصوصا في الحروب فإنه لا معنى له ولا قيمة. عهود بعَّد الله عنك كل مكروه ومتعك بشبابك وما أنت فيه من جمال الخِلقة والروح والعقل.

– بهذا الوصف تحرجينني يا حكيمة.

– إنها الحقيقة.

– وما تحبين أيضاً؟

– الرسم والموسيقى، الحب شوهته الحروب وعبثت بأوتاره الخالدة وخلّف بدله أصوات الانفجارات والقنابل ونيران المدافع، الموسيقى والرسم هما فقط ما زالا يسندان وقوفي وأستنشق من خلالهما أنسام البقاء، يبست الغابات، جفت البحيرات وتغيرت ألوان مياه الأنهار ونسي الهديل دعاءه الأول الحافل بأنثاه، هذه صفحات كتبتها وأنا في شرخ الصبا، كان يأتي وكنت أذهب إليه وفوق صخرة الجدول وتحت شجرة الصفصاف كنا نعزف معزوفة الحب «بالنوت القديم» وكان يأتي وكنت أذهب إليه، هل تدرين من هو يا عهود؟

– لا طبعا.

– إنه حبي الأول لقد انقضى بيني وبينه زمنا طويلا إلا أنه مازال يعيش معي في حدود

حياتي الخاصة، يتحرك ويتنقل ويسافر معي حيث أسافر، وكثيرا ما ينام معي عندما أتحول إلى ما فوق الطبيعة، عالم النوم فوق مستوى عالم الحياة، عالم يسمح لنا برؤية المجهول والقريب، ويسمح لنا أيضاً بلقاء مع الموتى والسفر إلى الماضي كما كان. أخذته الحروب إلى أحضانها وهو ما زال في بداية الطريق، حبي تبخّر وتحول إلى دخان.

– وحبك الثاني أو الثالث..؟

– أو الرابع أو الخامس.. ها.. ها.. بالنسبة لي لا أعترف ولا أحس إلا بحب واحد، قد يكون الأول، الثالث، ولكن أنا أنتمي إلى الأول.. هذه هي الخلاصة التي ختمتُ بها قصتي.

– وتركتِ الرجال؟!

– يقولون للكاتب قصة واحدة وللمطرب أغنية واحدة وللشاعر قصيدة واحدة وللموسيقي معزوفة واحدة.

– لا أفهم..

– هذا من تصنيف الفن الرفيع، وهذا الحس الدقيق لا تصل إلى بهائه وسبر أغواره إلا النخبة المتخصصة من أصحاب الدراية الواعية، وأنا من أهل معرفة ومبدأ هذا الإيمان. الوقوف عند منطلق واحد والباقي عواقب وسُحُباً متوالية طلّها لا يروي ترائي، لا أنكر.. حاولت الخروج من هذا البرزخ وأنا في أوج القوة والأنوثة وأن أجعل لنفسي مأوى يغطيني ومنبعا يرويني، إلا أن روحي توقفت عند ذلك البرج، لا شك في أني من فصيل نادر. تقلدت الطريق الترابي وأنا أحمل متاعي الخفيف وطرقت الباب الحديدي الكبير ودخلت الدير وخلعت عن ذاتي مقاليد الدنيا وتقاصيت عن وهج الحياة ودعاء الرنين، ارتديت ملابس الكهنوت وعَمَّدت مشاعري إلى السماء.. وتفرغت لعبادة الله.

ذات مساء هادئ جميل دعتني راهبة طيبة القلب فياضة بالمشاعر الإنسانية وتكبرني بسنوات، أجلستني بجانبها على مقعد حجري في حديقة الدير، كانت السماء مرصعة بالنجوم ومزينة بالأحاسيس المتألقة، أشارت بإصبعها إلى العلياء: ذلك هو الدب الأكبر وذلك هو الأصغر وذلك مخلب الذئب وتلك حجَّارة بنات ناعش ومن هناك يبدو الميزان. أتعرفين هذه الأسماء؟

– لا، من يسكن المدن وتتقيد حياته في حيز حدودها لا يعرف شيئا عدا ما تنقله وسائل الإعلام، إننا سجناء في سمعنا وبصرنا تحت أسقف بيوتنا فتقيّدْت إرادتنا وسكن جموح خيالنا وتأملاتنا ويكاد يتلاشى البحث الإرادي والصعود بالذات إلى درجات تسمح لنا برؤية الأبعد والمتعة النقية!

– إنه كتاب.. كل ما فيه حياة. أين كنت تسكنين يا كراسينيا؟

– اشبيلية يا كريمة الفضل، ويا نبيلة الأصل.

– هل قبلت وارتضتْ نفسك بحياة الدير؟

– قد أكون، ولكن ما هو البديل يا عزيزتي الراهبة؟

– أنت ما زلت في ضحى النهار وحياة الدير تثقل وزرك وتذبل شبابك وجمالك، عمل الخير موجود في كل مكان، خصوصا وأنت ممرضة على ما ذكرتِ، فمثل هذا العمل الإنساني المبارك بأدائه الفاضل وآدابه الخيِّرة يوسِّع الله عليك ويجازيك أفضل جزاء ويعوضك عن العمل في الدير زيادة بألف حسنة إذا صدقت النية، فليس كل من يدخل الدير من أهل الرضا والجنة وليس كل من تاه في الطرقات لا يرى إلا عيوب الحياة، لا يأتي إلا من خلال مواقفها المتصارعة من أهل الجحيم!

خرجتُ من الدير وامتطيت دربي أتابع حركة الشمس على الرغم من أن بقائي في الدير لا يتعدى زمانه حكم السنة إلاّ أنه مدَّني بخبرات دقيقة مفيدة كنت لا أعيها، عرفت أصنافا من الرجال وأخرى من النساء، وأن الشعوب في نظر ملوكها وحكامها عبيدا منساقة ووقودا رخيصا للحروب، وأن العالم لا يريد أن يتحول عن هذه الفلسفة الماكرة الظالمة، لا بد من خلق الدساتير الحاكمة ورفع العبودية والظلم وفك قيود الإنسان التي طال أمدها من نُظم الرتابة والملل. في طريقي وقفت عند مصبٍّ أنصت إلى هدير الماء يوحي أنه عنصر البقاء، الرجل ذكر والمرأة فرج ومن هذا وذاك تزدهر الحياة.. ثم تأتي الحروب ويأتي موسم الحصاد الصعب والمحصول الكريه! فمن الذي فرض هذا الحق الباطل!؟

5

توطدت علاقاتي مع الحكيمة كراسينيا ومدّت حبالها، تعلمت منها بعض الجمل ثم بالتدريج أدخلتني إلى الأدب الأسباني من شعر وتاريخ ورسم ورواية، ثم أطلعتني على بعض من رسائلها الخاصة ألبومات صورها.. إنها تاريخ واسع الأحداث وكتاب متكامل الصفحات. ذات يوم قالت في صيغة مُنمقة بالبهجة والرجاء:

– بلادكم جميلة وهادئة توحي بالخيال المثمر والأمل الصاعد والأماني المُزهرة، إنها تُقدّم عروضاً واعية للقيثارة البكر أتمنى أن تنطلق وتئن أوتارها بين خمائل ذلك الجبل العظيم، الغيتار، القانون، الكمان، الريشة.

– لا أفهم ما ترمين إليه.. استفزيت عواطفي، ما ذكرتِهِ صار يسري في خَلَدي.

– تضطرب نفسي بهجة عندما أرى عن كَثَب تبادل صنوف الألوان الحية بين السماء والبحر والريح الهادئة والشجر.

– خذيني إلى مشاعرك الفتية الكبيرة يا كراسينيا.

– هذا الذي أتمناه، إلا أنها ليست إرادية.

۞ ۞ ۞

اصطحبتها معي إلى درنة، وأنها تريد أن تزور عائلتي إلا أن نظراتها وخيالها يوحيان بالتحفظ، ربما ترى محيطي سراً محفوفاً بالغموض.. فعلا لم أذكر أحدا من أسرتي ولم

أغادر المعهد في زمن الفراغ إلا ساعات.. أحيانا صحبة صديقاتي. سنة ونصف السنة ليس بالزمن القصير على فتاة لم تبتعد يوما عن مكان دراستها ولم يزرها أحداً وهي على مستوى رفيع من الثبات والثقافة والجمال. لم أذهب إلى بيتنا بل طرقت باب بيت امرأة عمي، ومن جمال الصدف وحسن حظي أنها موجودة، احتضنتنا بكل رحابة صدر وحرارة استقبال وأكرمت وفادتنا وعززت مكانتي الاجتماعية في نفسي، الحمد لله الذي جعل لي وطنا وأُناسا يحسون بوجودي وقلبا يحبني.

أول مرة أرى كراسينيا بهذا الصفاء الذهني وهذه البهجة الكبيرة، الحقيقة أن العمة خديجة جعلت يومنا حافلا بكل ما هو جميل.

عند رجوعنا مساء راعها منظر أخاذ، تهللت عيناها فرحا وطلبت من سائق التاكسي التوقف ولو للحظات، نزلتْ من السيارة وانطلقت سيرا تجاه مقصدها.

فوق هضبة مرتفعة عند روضة يانعة فوقها منارة عالية وقفت شامخة تنظر حيال البحر البعيد وتموّج الدوح النضير المتواصل حتى شفاه الأفق، ثم تلتفت إليّ وتعود إلى وجهة البحر.. تناديني..

– عهود.. عهود هل أنت معي؟ تعالي وشاركيني روعة الشعور في بدائع الخلق، من هنا يرتقي الشاعر عن التراب ويتجرد من ثقل الأوزان، من هنا تأخذ القوافي ألفاظها والريشة ألوانها والغيتار أنين أوتارها...

أمـــواج مـــن عـــالم الغيـــب ... تتكـــسر عـــلى شـــاطئ الـــسَّحري
دعـــاء كـــالهزار يغنـــي ... يـــصدر مـــن هـــذا الفلـــج الأفقـــي
مـــن هـــذا المنـــار العـــالي الوهّـــاج ... لا يتراجع ما خطه قلمك على صفحات صدري
يأيهـــا الراحـــل في الـــضحى القريـــب ... رَحَلـــتَ.. ومـــا كنـــتَ تـــود الرحيـــلَ
أعـــرف أنـــك باســـم ترجـــو لقـــائي ... أحـــث ســـنين العمـــر لانـــضم إليـــك
أيها البعيد، وأنت منشد من وراء الزمـان ... قلبـــي يـــستقبل نـــداك ودفء هـــواك

ما رسمته لي مازال محفوراً على جبين عمري

أعــرف أنــك واقــف.. ترجــو لقــائي ثغرك باسم، ذراعاك مشرعتان وعلى صدرك تضمني
إني لا أنساك أيها العازف في عالم ذكريـاتي مازلــتَ ضــياء تمــوج في ظلــمات أيــامي
أراك حياً يافعاً تخطو..على أجمـل جزيـرة بــين ريــشة الــوتر و..غيثــارة الأمــل
هيــا.. هيــا يــا ابــن الآفــاق شــد بيــدي في محفــــــل لقاؤنــــــا الأيــــــدي
إنــــــه مجلــــــس حــــــضورك وتــــــــــاريخ أفكــــــــــاري

6

دخلت عالم كراسينيا من أبوابه الفسيحة الجميلة، أُمرِّض بشعور وأُعالج بإحساس وأسمع أصوات البشر بإنسانية، أرى أن الله هو الذي أمدني بهذا الفيض الرحيم وكلفني بهذا البعث الصادق، رسالة كبيرة: تلاشت العقد من نفسي واضمحلت السوداوية من خواطري ووقفت وقفة شاعر في أشعاره نغمة الغزل ورعشة الوتر وهمسة الفجر.

– ما عدتِ تناديننى بالحكيمة يا عهود.

– لأني أحب اسينيا.. آسيا.. كراسينيا

– هل تعرفين من أين أصول هذا الاسم؟

– من اسم آسيا، وهو عربي أصيل، بل إسلامي مذكور.

– إني أحب الإسلام، وأحب العرب، وأحب عهود.

– آسيا لا تنسي التاريخ.

– ولا تنسي اليوم يا عهود، أعرف أنك تنظرين إلى الأفق بقلب ملآن ونبض خفاق.

– لا أخطئ إذا قلت لك إن جدي القديم هو جدك، ولدا طفلين كبرا معا فالذي بقي هناك في اشبيلية هو أبوك والذي توقفت به القافلة هنا هو أبي، لا تنسي التاريخ يا آسيا.

– غرفتك واسعة ومنشرحة وشبَّاكها يطل على النجوم.

– انظري إلى بنغازي كيف يأخذها السكون المبكر وتلجأ إلى فراشها الدافئ.

– أناسها تبحث عن لقمة العيش بكد وجد، فيأتيها المساء تَعِبَة مُنهَكة.

– ما أعطر أجواء غرفتك، أحس أنه يحرك عواطفي ويجعلني متحفزة لأمر أجهله، ما هذه؟ ما هذا؟

– الكمان، مجلس الرسم، لوحة لحبيبي الذي لن يعود، وريشة الإبداع، هذا كل ما أملك وكل ما يأتي بعد ذلك فإنه ليس لي. من هذه الأوتار الصماء المرتعشة أخاطب روحي، الأحياء، الكبار، الجماد، الموتى، ومن خلالها أتحاور مع الشعراء والشجر والطير، إنه كيان كبير لا يدركه إلاّ من يدرك، ما تكاد تنطلق هذه الأوتار وتأخذ مفعول الحياة في أوصالها وتتخاطب فيما بينها حتى أحس بالصعود وأطياف حالمة تتراقص من حولي في عالم تزهيه وتزينه النجوم وعزف يعم الفضاء ينظف الروح والنفس من أدران ما فوق التراب.

– أجل، إنك عنصر نادر يا ابنة اشبيلية، إنك من الخَلق النادر في هذا الزمان.

– وأنت كذلك عنصر نادر لا يدركك إلا من يدرك ويحس ونادر من يحس في هذا الزمان الذي ندرة فيه رائحة الرجال من أنوف النساء.

– وما تريدين مني أيتها الحكيمة؟ تعلمت التمريض من براعة يديك ونظرة الأمل في عينيك وبسمة وهمسات شفتيك وتلقفت شِعرك وذابت صُوَرُه وألفاظه في دمي، وما بعد ذلك؟ الكمان؟!!

– الكمان! أصابع يديك أنامل عزف، مُحياك محراب وحي، رموشك واحورار عينيك مصبات إلهام وصدرك الناهد روضة من رياض الربيع، هيا خذيها يا عهود، ضعي المسند هنا،، هنا عند الجيد قريبا من القلب تلامس الوريد، ميلي بوجهك إلى الأمام قليلا مدي يدك وامسكيها ثم خذي القوس هكذا.. تأملي بعيدا، قربي أوتار القوس من أوتار الأم، افرجي أصابعك، أنسي ما في الدنيا وخاطبي ذاك الذي يحوم في الهواء حتى يكون الإبداع سليما صادقا، وهكذا يا عزيزتي عهود تأخذين دورك في طَرق لسان جديد من أجل زرع بذور حياة من أرقى الألحان وأجمل الألوان وبأفصح وأشمل وأجود بيان، على هذه المدرجات الصاعدة تمدين خطاك نحو الشهرة ومسابقة النجوم، الموسيقى تغذي الروح وتنمي الصحة النفسية، تهذب النفس وترتقي بالشعور وتقرب إلى الله، تُخلّصُ الجسد من الأمراض، حتى المستعصية منها. هيا ابدئي وتابعي خطواتي وإرشاداتي بدقة، والعمل الجيد لا يأتي إلا بالمثابرة والمعاناة. لا تنسني يا عهود.. إني ما زلت أعيش هنا!

7

ها هي حافلتي تشرف على مدينة درنة وشمس اليوم مالت إلى المغيب، أين تراني ألتجئ؟ كنت أود أي مكان آخر أبعد ولكن الوزارة كلفتني بالعمل في مستشفى درنة، منذ أيام كنت أحس بهذا المصير، لا أحد غيري يعرف ما أنا فيه، ولكن ما تأتي به الرياح تأخذه الزوابع. الظلام يلقي بسدوله في الشوارع والأزقة، حقيبتي في يدي وأنا أمشي وئيدة الخطى، عيون المارة ترمقني وتتحسس جسدي، توقفت لأستريح قليلا وتساءلت محتارة.. إلى أين؟ هل أقصد بيت أبي؟ وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي منحدرة إلى بيت امرأة عمي ولكن أي سامع لا يتصور المفاجأة التي عصفت بي ورمتني في هوة من الحزن، لقد ماتت أمي خديجة كما كنت أدعوها.. الله! ما أسهل الموت وما أقصر العمر! لقد مات القلب الذي كان يحبني. بتُّ ليلتي في كدر وحزن، عند الصباح أخذت حقيبتي وخرجت، لأن الوضع الاجتماعي لا يسمح لي بالبقاء في بيت ليس فيه إلا الذكور، مشيت إلى بيتي، أعني بيت أبي، طرقت حلقة الباب الحديدية انفتح الباب وظهرت من ورائه امرأة في مقتبل العمر توحي أنها عزيزة المقام، نظرت إلى هيئتي ثم حدقت في وجهي ثُم قالت مستفسرة:

– تفضلي يا شابة، يبدو أنك آتية من سفر بعيد.

– أحسنتِ يا سيدتي.. أنا عهود.

– قلتُ تفضلي، ادخلي أعطيك شيئا تشربينه، شاي أو قهوة.

– كأس من الماء يا سيدتي.

– أهلا وسهلا بك.

– الله يبارك فيك، كأنك لم تسمعي عني شيئا.

– إلا الخير إن شاء الله، من أنت؟ ومن أين جئت؟

– من بنغازي، وأنا صاحبة هذا البيت يا كريمة الوجه.

– أنت صاحبة هذا البيت!؟ لا أدري ولا أعرف ما تقصدين يا فتاة؟

– إنه بيتي يا سيدتي وهذه غرفتي، أرجوك لا تضطربي ولا تخافي يا فاضلة ولكن الذي أقوله هو الواقع!

– نحن اشتريناه منذ عام تقريبا، لا أحد أخبرنا بهذا.

– طالما أصبح ليس لي علي أن أشرب قهوتي بسرعة واتركيني أخرج.

– لا تتعجلي بهذه السرعة لِمَ لا تبقي تشاركينا وجبة الغذاء؟

– أشكرك، كأني فعلت، وداعا يا سيدتي، لا أريد أن أُشقي أحدا.. وداعا يا بيت أبي! وداعاً يا آخر ذكرى لي من أبي.

خرجت أجوب شوارع درنة، درنة ليست كبيرة، استغرب مني الكثيرون وأنا بهذه الهيئة ألُفُّ وأدور ولا أتوقف، تتوقف مراوح طواحين الهواء ولا تتوقفي يا عهود! إلى متى؟ أين ألتجئ؟ أين ألتجئ يا الله؟ والنهار استقام إلى مشواره الثاني، حاول أكثر من واحد أن يكلمني ويدعوني إليه. اتجهت إلى المستشفي وفي إدارته أعلموني أن إجراءات تعييني لم تأتِ إليهم بعد، جلست لحظات استرجع أنفاسي ثم واصلت خطاي، عند الباب وأنا خارجة أوقفتني إحدى عاملات المستشفى في استفسار بصوت ناعم رحيم:

– «شورك» من مكان بعيد يا ودودة وما عندك حد في هذه البلاد؟ أنا عرفتك من وجهك وعيونك.

– أخذتني وأنقذتني من ضياعي في بلادي في مسقط رأسي، ما أغرب مصائر الإنسان.. تبعتها إلى بيتها وهي تحاورني بلطف وحنان، دخلت ذلك «الحوش» المتواضع في هذا الحي

الأكثر تواضعا وفيه عرّفتني على ابنتيها، عزيزة وغالية، وأخبرتني أن زوجها عمي صالح يعاني من مرض الأعصاب في مستشفى الأمراض العقلية منذ سنين وأن ابنها ويدعى غازي في طرابلس يدرس في كلية الهندسة، وأنا خالتك غزالة.. هذا هو حوشي يا بنيتي وهذه داري وهذه لإبنتَيّ والمربوعة كانت لغازي، وأنت بنتي الثالثة.

– أشكرك يا جوَّادة يا كريمة الأصل.

– الجود من الموجود يا شابة يا جميلة، البيت بيتك إلى متى تشائين، أنا أمك وعزيزة وغالية أختاك.. والجود من الموجود.

تعشينا، وبعد احتساء الشاي استأذنت الأم وذهبت إلى فراشها وبقينا في غرفتنا نتحاور ونتجاذب أطراف الحديث والخواطر الجميلة، لأول مرة أضحك وأقهقه بتواصل منذ أكثر من عامين! إنه حديث طيب المسمع يحرك كوامن الشجن. تلاشى النور فجأة وهفا السكون، فراش نومنا شبه واحد على دكه «سِدَّة» وكذلك الغطاء أيضاً، وما هي إلا لحظات حتى غابت البنتان في سبات، وراودني النوم لحظات ثم فك هجاره وانطلق يركض بعيدا وتوافدت على نفسي وخيالي خواطر كبيرة وأفكار ليست آنية وصرتُ شداً بين هذه وتلك ولم أترك هذا المسرح المشحون إلا فجراً، لا أدري كيف اختلسني النوم وسط مكان غريب، مشاهد مرعبة في ظلام قاتم وقطعان جائعة من البق والبرغوث.. ونفس صغيرة حائرة من ظلم بعض الناس!

كان الوقت ضحى عندما تناولت طعام إفطاري، ولا أحد في البيت، عزيزة معلمة وغالية طالبة في المرحلة الثانوية وأنا ممرضة عاطلة ضائعة، وماذا بعد هذه الساعات الثقال؟ الأصوات التي تأتي من الفضاء الخارجي لا تؤنسني، تصل إليّ ضعيفة متلاشية، تزاحمت عليّ الأفكار المريبة وغام في عيوني ضياء الضحى، علاجي النفسي أن أجعل لها حدا فاصلا بيني وبينها. تذكرت عمي وأمي، رواية الأخطبوط، كراسينيا، الكمان والسر العجيب الذي اكتشفته أصابعي كامنا في جوفها وخلال أوتارها، ما همس به في سمعي ذاك الفتى صاحب الشَّعر الذهبي، الخالة غزالة، عمي صالح، ماذا لو يأتي الآن، وهو في جنونه، ويجدني أمامه؟ تراه كيف يتصرف معي؟!

نهضت من مكاني وغسلت أواني إفطاري وشرعت في غسل ملابسي ثم أنعشت جسدي بحمام بارد، وضح تفكيري وانجلى نظري، دخلت المطبخ وألقيت نظرة على ما فيه، غسلت

أوانيه ورتبتها وبفضول طفقت أُعد وجبة الغذاء على الرغم من أنني لست راضية لهذا الإجراء لأنه تعدٍ على خصوصيات غيري وشئون ليس لي الحق أن أتجاوز حدودها والمساس بها إلا أنها كانت مفاجأة سارة وعمل مُرَحب به من قبل الخالة غزالة وابنتيها اعتبرن ذلك كرماً وأصولا حية متفوقة.

اقترب عيد الأضحى وجيء بالعم صالح، إنه كما توقعته في العمر وتصورت شكله وهيئته، إنه يعاني انفصاماً في الشخصية تقريبا، تراه طبيعيا أحيانا وكثيرا ما يغيم نهاره وينسى ذاته ويعيش في ظلام مخيف وطلاسم قاسية.. عالم لم يكتشفه ولم يعرف أسراره إلا الله، أول ما دخل البيت جاءني مرحبا وسلَّم عليّ بوجه وديع باسم وكأنه يعرفني، ربت على شعري وقال:

– ما شاء الله..أنتِ..؟! أيتها الملاك الرحيم، حوشي طاهر وكبير وفاحت فيه رائحة عطور الفرح، كأني رأيتك من قبل يا عهود لكن في الحقيقة أو في الحلم.. الله أعلم.. «عزيزة هيا فرّشي، غزالة ديري الشاي وبعدين تعالن قعمزن حداي» .. آه.. غالية جيبي الكاكوية والخبزة، شورك نسيتي يا غزالة، اكرمي ضيفتنا.. أنا فرحان.. فرحان.

– عهود ولت بنتنا ما هيش ضيفه يا صالح.

– أنتِ منهي يا عهود؟ وكيف وليش جيتينا؟

– إنها رحلة من الرحلات، المقادير ومصائرنا يا عمي صالح

– بوجودك زاد فرحي وارتفع مقام بيتي، إن شاء الله غير تكوني راضية علينا؟

– أنتم أهلي يا عمي صالح، وجدت غايتي بالمأوى والماء والملح.

– «أنت جيتي برزقك يا بنيتي، ووجودك معانا فضل من الله، الله يحبنا وراضي علينا.»

– هذا هو شعوري يا خالتي غزالة، إيه يا عمي صالح ما ترى في خيالك وأنت جالس بين عائلتك؟

– لا أنسى ذلك الأسود الضخم الذي عضني من رقبتي ومص ريقي ودموعي.. هه فمي جاف وعيوني بلا دموع، أتمنى أن أمشي إلى البحر وأغمر نفسي فيه لتبتلَّ عروقي وترجع لي صحتي، هيا.. هيا خذيني إلى الموجة السابعة.. خذيني إلى البحر!

8

استلقيت على فراشي وحالا ما جنح بي الخيال، إنه ليل وفي الحقيقة أن الليل ليل النفس الضاربة في المجهول، هذا عيد الأضحى وفي الأعياد يفرح الناس ويلبسون الجديد وتلتئم العائلة فأين أنا من العيد؟ وأين ذاك الزمان مني؟ أنا أنثى في هذا المجتمع والأنثى في هذا الوسط وفي مثل هذه الظروف لا تقوى على مصارعة أضداد!

وبينما أنا في ذاك الوجود استيقظت من حلمي على صيحة وردت من دار خالتي غزالة، وما كدت أفتح عيني وأتحقق، حتى لمحت عزيزة وغالية تنطلقان بسرعة فتبعتهما على الفور، كاد يقتلها المسكينة، لقد تبدل وجه عمي صالح وتغيرت كل ملامحه الطبيعية، لعابه يغطي شفتيه.. أقول وأعوذ بالله من التجاوز في حقه، إنه حيوان أقرب منه إلى الإنسان وجه غوريللا ومخالب نمر وقوة جان.. الله! ما أعظمك أيها الخالق! تختفي سمات وتحل سمات وتحل قوىً وتتلاشى أخرى.. إنها الطريق الصعبة، الطريق البشرية الطويلة كلما سرنا وتوغلنا في مجاهل محطاتها لا نصل ولا تصادفنا حقيقة ثابتة نهائية بل تزيد عَرضا وتمتد إلى نسبية تكتنفها الغوامض والأسرار تُحير العقل وتقلق الفكر.

- عمي صالح.. عمي صالح...

التفت نحوي يرتعش، عيناه الحادتان باتتا تنطفئان شيئا فشيئا، استقام في وقفته ثم اتجه نحوي مُنْحنِي الرأس كأنه يحس بعيبه أو بتأنيب الضمير.

– هل نسيتني يا عمي صالح؟!

– لا.. لا.. كيف أنساكِ؟

اقترب مني ماشيا وجسدي يرتعد خوفاً وبنتاه في حَيْرة تتبعانه في حذر وقلق خوفا من أن يسيء إليّ، تبسّم ومد يده يلامس ذقني وربت على ظهري، كان يفعل ذلك ويداي في حالة شلل وعيناي منطبعتان على وجهه الذي صار يلين ويرجع له دمه الطبيعي.

– لا.. لا أنساك يا عهود، أنت نجمة ساطعة في سماء بلا نجوم ولكنك لم توفي بما عاهدتني، البحر.. البحر.. الموجة السابعة هل نسيتني؟

– لا.. أنا ما زلت عند وعدي أيها المضيف الكريم، سنذهب إلى البحر ونسمع معا ما تبثه الأمواج الصاخبة، إنه إيقاع ورنين.. غالية هات كأسا من معصور الليمون إلى باتك، اجلس يا عمي صالح واستند إلى فراشك ولا تخرج بخيالك وتفكيرك عن محيطنا.

– أعرف.. لا يأتي منك إلا الخير.

تناولت الكمان وعدلت أوتارها، أخذت كُرسياً، خفضت من وهج المصباح بقدر الإمكان وشرعت في العزف الخفيف ثم أخذ يتدرج حسب منطلق الأمواج، عزف حزين من موسيقا «ترابيا» مع وقفات خاصة تخاطب الأذن وأخرى الوجدان المضطرب ومحاور وسطية تهز العصب وتخلخل الحس وتتدرج إلى عمق المريض وتتحول إلى موجة سابعة ذات طاقة عالية تسري مع دمه لأن السر العجيب في الدم.. الدم هو اللغز المحير!

– عزيزة خذي الكوب من يد باتك.. عزيزة خذي الكوب من يد باتك.. عزيزة.. عزيزة.

– نعم.. نعم.. ماذا؟

– خوذي الكوب من يد باتك، ما بالك هكذا؟ لِمَ أنت منذهلة؟

– كنت خارج الشعور، ربما كنت في نوم، لقد سحرني النغم، ما زالت أوتاره تتجاوب بها نفسي وتأخذها من عصب إلى عصب، ما هذا الذي تفعلينه يا عهود!؟ أَكُلُّ ما تقدم انطلق من هذه الآلة الصغيرة!؟ وأنت يا غالية لِمَ أراك في هذه الحيرة الغامرة؟

– لا أستطيع تفسير ما كنا فيه، لا يكون إلا دعاءً وتسابيح ملائكية.

– بل إنه غناء مسحور من أفواه الجن، عهود.. هذا ليس من ألاعيب أصابعك بل إنه صندوق مجنون، لا أدري أنك بهذه القدرة والبراعة حتى يخرج من بين أصابعك هذا الذي لم أسمع مثله ولا أستطيع وصفه إلا أنه فارس أسطوري يرتدي صهوة فرس النغم، لقد تغلغل في أعماقي وسرى في كل خلية من جسمي، لِمَ فعلت هذا يا عهود؟

– عمي صالح النوم يدفعه للفراش دفعا، خذوه إلى مخدعه.

– إنه يغط في سبات عميق!!.

– لنتركه الآن وحده، أخذتْ أعصابه تستقر وترتاح وهذه بداية ومنطلق مبارك.

– هل تعوده النوبة في هذه الليلة؟

– لا أظن، ولكن نسهر هذه الليلة حِرسا عليه ونساعد أمك غزالة في صنع أَلْفْتات والفطائر وبعض المعجنات بمناسبة العيد المبارك.

– أحسنت تفكيرا، أحسنت يا عهود.

طلعت شمس اليوم التالي وعمي صالح ما زال يغط في نومه، ذهبت إليه الخالة غزالة وأيقظته، كنا جميعا بالقرب منه عندما صحى، قام ونظر حول نفسه وتأمل أصابع يديه ثم نظر إلى كل واحدة منا، هناك أشرق وجهه رضاءً ورفع يديه مبتهلا إلى الله يشكره ويحمده:

– إني في سعادة!. غزالة.. غزالة، عزيزة، غالية، وأنت.. أنت نسيت اسمك.

– عهود

– عهود.. عهود ما أجمل هذا الاسم، اسم على مُسمى، لقد أتعبتك يا عهود.. كل الليل وأنت واقفة تغني لي وأنا أصفق فرحا، لقد أتعبتك يا عهود، غنيتِ فسقيتِ قلبي الظامئ، لقد بكيتُ يا عهود بالعبرات وأنا أتوسل إليك أن تزيدي. «غزالة هاتي «الْعداله» واعملي الشاي والفطور».

– كله جاهز يا صالح، اسفنز[1]، فتات، وخبز..هيا.

---

(1) معجنات مستديرة مقلية في الزيت/ يستعملها سكان شمال إفريقيا فطوراً.

– عزيزة.. غالية.. وأنت يا عهد العهود.. مبروك عيدكم، اللهم اجعله عيد خير وبركة علينا وعلى جميع المسلمين.. آمين. هيا كل واحدة منكم تقعمز[1] بحداي وتفطر. أين غازي؟

– في طرابلس، استغل عطلة العيد وذهب إلى تونس بسلامته.

– أه!. الحمد لله صفت عيوني وشعرت بالهواء البارد يدخل رئتيّ وسمعت الآذان مسترسلا حتى النهاية.. أين كنت؟. أين كنت؟!

تذكرت أمي، أول مرة أحس بالحنين إليها. إنها تعيش في بيئة فكرية متواضعة ولا أدري كيف يكون حالها مع ذلك الغريب. تشرق الشمس وتغيب وتظهر علينا شمساً أخرى ويتعاقب الليل والنهار ويفعل الزمن فعلته في أجسامنا، إلا أنني ما زلت أتذكر بوضوح أعياد الأضحى قبل وفاة والدي وكيف كانت أجواءها الدافئة بألوان المحبة والفرح. عندما أتذكر أبي أكره أمي، إنني أحب كل الآباء وأكره كل الأعمام، حتى الذي لا أعرفه. أخلاق عمي وأمي وسلوكهما معا وطريقتهما معي جعلاني أخرج عن طوري البشري والإنساني والشعور بالتقزز والغثيان من العلاقة البشرية بين الرجل والمرأة. غزالة وغالية كثيرا ما ترويان عن مغامرات الحب والعاطفة وإثارة الشعور الجنسي، علاقة الذكر بالأنثى وعذوبة القبلة وآهة الضمة إلى صدر الحبيب. إنه الوجود، قانون البقاء، القوة المهيمنة على الأرض تأتي في صورة لذة متواصلة تتغلب على العقل والقوانين والتشريعات. والمرأة تعتبر الفاصل الأكبر في هذا النشاط الكوني فهي التي تأتي بالذكر وتنجبه وترضعه وتربيه ثم توحي إليه بألاعيبها السحرية فيخفض لها جناح الذل ثم تتزوجه.. وهكذا تتواصل اللعبة! أو سُنة الحياة!!

– ماذا قالوا لك عن الحب في رسائلك الغرامية؟ هيا اذكري حتى أحكي لك، نحن الاثنان فقط، احكي عن تجاربك الله يوسع خاطرك.. هيا يا عهود.

– ماذا أقول لك يا عزيزة؟ سمعت كثيرا من هم دعوني إلى ذلك، يصفون جسدي وجمالي ورقة مقالي ولا أنسى العدد من الرجال الذين خطبوا وُدي ودعوني إلى الزواج

(1) جلس.

الشرعي إلى درجة التعلق بي ولكن كلما تذكرت أمي وعمي أرفض وبإصرار إلى درجة أنهم يقولون «هذه فاقدة»! ويعنون أني تنازلت عن عذريتي في لحظة طيش!

– مازلتِ بكرا فعلا ما زلت في أول الطريق، ما قيمة الحياة بدون حب؟ تبادل رسائل.. وتبادل.. وتبادل. والشكوى والعتاب والشعور بلوعة الحب للرجل، كل كائن حي يمارس هذا. أنا أحكي لك ما جرى في عالمي، نحن الآن معا في خلوة، سميها خلوة الأسرار، أحببت أكثر من ثلاث مرات يا عهود، أحسست بلذة الروح والجسد وشعرت بوجودي، له كيان منفرد، خاطبت الرجل عن كثب أكثر من مرة ولكن في حدود، لا أقول إنه العبث المتطرف بل إنها الطبيعة البشرية، بالحب نحس بالجمال وألوانه الزاهية، النغم الشجي، اللغة ومعانيها الراقية، العمل وسلاسة الحياة وعظمة الخالق فينا، قانون الخلق والبقاء. الحب كيان متجدد زاخر بالنشاط أوجده الله فينا فلا يصل الذكر مبلغ الرجال والأنثى مبلغ النساء حتى تتجه الأحاسيس والعواطف والتفكير والشهوة إلى الحب، فالرجل نصب المرأة والمرأة نصب الرجل فلن أترك الحب، نعمة الله علينا، يضيع في خيالات من السراب كما تتوهمين يا عهود، لم نسمعك يوما تضيفين لونا زاهيا في كلامك بصوتك الناعم، أنت تعالجين المرضى من أمراضهم المعقدة ولا تعالجين نفسك!

– إذن أنت على مشارف الزواج يا عزيزة؟

– لا أقصد من قولي هذا المعنى، إنه محك تجارب ودراسة أنماط في سلوك الرجل ومعرفته جيدا، ليس كل من نحب ونتمناه نتزوجه، كثيرا ما يأتي الزواج بلا موعد ولا تعيين رجل بعينه، هل تريدين الشعور بشهوة الجنس؟ أخبرك عن أول تجربة وكيف جرت بيني وبينه الأحاسيس والمتبادلات العاطفية والمآلات الناتجة.

– لا.. لا.. أرجوك، أعرف.. أعرف، إن اللبيب من الإشارة يفهم!

– اسرد لك الأحداث حتى يتحرك فيك ويسري الدفء في أعضائك.

– لا.. أرجوك لا تفضحينا، هذا سلوك يُدرك حتى بالفطرة.

– لا أحد غيرنا في الغرفة.

– ألا تسمعين حركة القلم؟ أنصتي جيدا إلى القلم وهو يسجل وينقل أخباره عنا، إنه لا

يبالي، أنا لا أفكر في الرجل لا من قريب ولا من بعيد وحتى لا أكون مخطئة ذات يوم قابلت شابا ذا شعر ذهبي وعينين زرقاوين، نظر في وجهي ملياً وربما خاطبني بكلمات عاطفية، نظرتُ في أعماق عينيه، رجع لزيارتي مرتين ثم تغير مكان وتوقيت عملي فلم أعد أراه.

– إذن حرك فيك ذاك الشقي دون أن تدري.

– عهود.. عزيزة.. أراكما في حديث شائق وهمس وشجون، لنترك هذا بعيدا، نسيتما ما عندنا اليوم؟ هيا تعالا، طبق من الشواء اللذيذ أعدته أمي وأنا، وباقي يسأل عنكما وقد أكل الكثير منه.

– عمي صالح لا تكثر من أكل اللحم.

– أعرف، لكنه لحم عيد مبارك لا يضرني إن شاء الله، لقد صليت العيد مع الناس وفرحوا بي كثيرا وعيَّدوا عليّ وعيَّدت عليهم لأول مرة من سنوات طويلة، كل ما يأتي من يديك خير وبركة، أبعدت عني الغول الأسود الذي يعض رقبتي ويمص دمي حتى يرتوي، ثم يتركني فأستيقظ من غيبوبتي، وهكذا الحال عندي منذ سنوات. ها هو.. ها هو الغول يا غزالة.. غزالة الغول لَفَي علي وبدأ ينهش لحمي ويشرب من دمي، أبعديه عني أبعديه عني.. آه..آه.. آه.....

– غالية كوب ليمون، الكوب من الحديد والليمون مذاب فيه عسل، هيا بسرعة لقد جاءته النوبة وهي عنيفة هذه المرة، جاءته عن طريق الإيحاء ما يسمي في علم النفس بتداعي الخواطر أو الدعاء الخفي، اسقيه يا خالتي قبل أن يذهب في غيبوبة الصرع، لنأخذه إلى الغرفة في الحال.

– تملكته قوة عنيفة يا عهود، لا بأس نحن أربع هيا.. هيا.

حاول المجابهة والإفلات ثم استجاب واستمال منحنيا إلى الأرض، حملناه وطرحناه على فراشه، واصل مستمرا في صراعه مع المرض عيناه منفرجتان صدره يخفق بسرعة ولعابه يغطي شفتيه ووجهه تموِّجه سحابة صفراء.

– خالتي غزالة أزيحي الغطاء عن رجليه وحركي أصابعهما بتواصل، وأنت يا عزيزة امسكي يده اليسرى وحاولي فتحها واجعلي كفك يلامس بطن كفه مع تحريك الأصابع، يا

غالية هات قطعة من الخشب تكون غليظة ذات وقع مسموع امسكيها وقفي بجانبي وعندما أشير إليك اطرقيها على الأرض بقوة، والآن سأبدأ في العزف.

انطلقت الأوتار تئن وتؤوب وتسري وتجوب متنقلة وتمد أمواجها عبر الظلام الساجي تخاطب المزاج وتناغم الشعور، سكن كل كائن وتحولت الغرفة إلى معبد كونفشيوسي تتجاوب فيه الأنغام والتسابيح لترهف كل إحساس وتجرد الجسد من ماديته حتى تصبح الروح خالصة لذاتها وتتخلص من الأثقال وأنها فوق مستوى أسماع البشر، تراخت يد الخالة غزالة وتوقفت عزيزة عن الحركة وأغمضت غالية جفونها وهدأت أنفاس عمي صالح عندها وخزت عهود يد غالية، اضطربت وفزعت صارخة من الوخزة المفاجئة وسقطت من يدها الخشبة على الأرض بفرقعة عالية حتى صرخوا جميعا.. وهذا هو المطلوب!

حاول العم صالح النهوض من فراشه إلا أن عهود لاطفته بحنان وطلبت منه الرجوع إلى مكانه وقالت له ضاحكة:

– خلاص يا عمي صالح أنت شُفيت وذهب عنك الغول إلى الأبد وجعلنا بينك وبينه سداً عاليا من الرمل فلا يعود إليك مرة أخرى.

– نعم يا بنيتي، لقد رأيته يهرب خائفا من ذلك الانفجار ويقع في حفرة عميقة.. الحمد لله.

– لا يا عمي صالح أنت تَعِب الآن، لا تتحرك، أعصابك متوترة وجسدك مُرهق.. لا تتحرك.

– يدك رحمة وشفاء وصوتك دواء.

الآن فقط تستحقين الثناء وتستحقي أن تسمي عزيزة، وعزيزة تستحق أن تسمى قصة يقرأها القراء ويتناقل الناس أحداثها.

تزوجْت عزيزة في عرس حافل بالطرب، صبايا حسان ناعسات الجفون متحفزات عطاشى للحب، كلمات وآهات تنادي فرسانها في موعد ولقاء، غناء يحرك الشجون ورقص يثير شهوة النساك والشيوخ.

الرقص والغناء ليست كلها تعلُّم واكتساب وممارسة بل هي استجابة روحية من الدرجة الأولى عندما تتاح الفرصة وتفرض الاستجابة نفسها ويقتضي الأمر. غنت عهود حتى سحرت السامع وأبكت عين المُعاني بدموع الشجن ورقصت بانفعال، ميول وانكسار وهزات مشحونة بالخصوبة، آهات رنانة ومهجة حزينة وحركات تهيمن على الإيقاع الصادر، ترقص وتهتز وعيناها مع خيالها يطوفان بعيدا عن مكانها، وكما هي في عالمها الخاص وتعابير فنها الرفيع انبثقت موجه زغاريد صارخة من ثغور المعجبات عرفانا لها وثناءً عليها.

– أيتها الفتاة الرائعة كأننا لم نرك إلا الساعة، منا المدرِّسة والموظفة والطالبة، ملأتنا زهوا وطربا وحبا، كلنا صبايا مثلك وكل واحدة تود التقرب منك، مدينتنا صغيرة فهل أنت من أهل درنة؟ إذا كنت كذلك فأين كنتِ؟ وكأننا رأيناك من قبل.. يا لك من فتاة!!

– نعم، ممرضة في المستشفى عازفة آلة كمان ومحبة للقراءة والتطلع إلى الماورائيات.

– الجمال والفن هما اللذان يقدمان ويعرّفان بصاحبهما ويفتحان له بابا شاسعا للشهرة.

– ربما.. ربما. أتمنى على نفسي وعلى غيري المزيد.

– أخبرتنا غالية أنك تعالجين بعض المرضى بلغة الأوتار وهذا من العمل العجيب.. أتعالجين؟!

– أحيانا..

– فكيف هذا؟

– عطية من الله أتيحت ليدي ومُنحت لي وأنا أسبر أغوار النفس وعُقد الأعصاب وأطلب من الله الاستزادة والاستفادة من هذه العلوم وهذه المعرفة.

– شفى الله باتي على يديك وآخرين طبعا فالله يوسع طريقك وبصيرتك، رقصتِ وغنيتِ في عرسي أحلى الغناء، وأبرع الرقص فأرجو من الخالق أن يرفع من شأنك ويبعد عنك الحزن وطيش الحاسدين ومكائد أولاد الحرام!

– فوزية.. هذه الفتاة لم تكن غريبة عني – سبحان الله – من وقت ما رأيتها وأنا أبحث في خيالي عنها. أنا متأكدة إني رأيتها في المعلمات – أو في الثانوية.

– في المعلمات لا..

– أُمّال في الثانوية..... ما هي ملاحظتك يا نعيمة؟...

– أنا مثل الأبلة فاطمة – كأني رأيتها من قبل.. لكن أين.. الله أعلم..

– حُسنَى تبتسم – لابد لها ما تقول.. ما الأمر؟..

– هذه عهود كانت طالبة.. كنا في مدرسة واحدة، تسبقني بسنتين. طُردت من المدرسة، وجدوها متلبسة بسرقة عقد ثمين من شنطة إحدى الطالبات – وتمارس السهر خارج بيتها.. إلى ما قبل الفجر.

– يا لطيفّ!.. هذا الوجه البريء الجميل، وهذا الجسد الرشيق!!. هذا مستحيل يا حسنى.. المصابيح لا تضيء بكفاية – أكيد ليست هي..

– بكل تأكيد ليست هي – المذنب لعنته تلاحقه حيث أتى – انظري إليها، وهي تعد نفسها لما يأتي بهدوء – وتتحرك بطلاقة وانسياب، وتتكلم بروية وحكمة. هذا سلوك لا يتأتى من مجرم له سوابق. السلوك الخطأ لا يتأتي من طبيبة نفسانية تعالج في الأمراض المعقدة. وموسيقارة ومثقفة – حشاها مسكينة.

9

قبل أن تنتهي سنة التخرج من المعهد بشهور وُزعت علينا بعض الوثائق والأوراق تطلب فيها الإدارة ملء فراغ ما يطلب منا، ومنها اختيار المدن أو القرى التي نرغب العمل فيها، من جانبي فضلت بنغازي ولكن الأمر لم يكن كذلك، فعندما عُلّقت القوائم وجدت اسمي مقرونا بمستشفى درنة. وهكذا جرت الأمور إلى هذا الوقت عندما استدعيت من جانب إدارة المستشفى، حيث أعلمتني وسُلِّمت لي رسالة: [نرجو أَلاّ نزعجك، عليك الالتحاق بمقر عملك بمستشفى بنغازي في أقرب وقت – «مع تمنياتنا لك بالخير والتوفيق»].

ما أسرع الأيام وما أقصر العمر! وكأني الآن فقط أدخل هذا البيت من هذا الباب، وخالتي غزالة تدخل أمامي مشرَّعة اليدين بوجهها البسيط، يملأه الفرح والمعزة وحفاوة الاستقبال، هي أربعة أشهر انقضت، كعابر سبيل وقف ليستقي ماءً من ساكن يجاور الطريق، وما إن ارتوى حتى أخذته الطريق إليها مرة أخرى.

مع إشراقة أول محور من نور النهار استكملت عهود كل شئونها ووضعت متاعها في حقيبتها ووقفت مسبلة الرأس واليدين دامعة العين حزينة الوجه على فراق عائلة عمي صالح النبيلة، جاءت الخالة معانقة وطرف ردائها منسدل إلى مستوى الأنف، وراحتا في عناق وبكاء متواصل لحظات طوال ثم أقبلت غالية وذهبتا أيضاً في نحيب يفيض باللوعة وحرقة الفراق

والوداع الأخير. السيد صالح هو الآخر واقف منذهل بين الحزن والحيرة تتساقط دموعه ويجهش بالبكاء وتنفضه العبرات يكاد كلامه لا يبين:

– «خلاص يا عهود تتركينا وتذهبين بعيدا، حسبت أنك قريبة مني، أصبحت واحدة من بناتي، ذهبت عزيزة فبقيت أنت مصباح ينير البيت ويطرد الوحشة وصوت رحيم يؤنس ويوسع الخاطر، كنتُ في ظلام دامس وحياة لا تحتمل فأخرجتني إلى ضياء الشمس وسمعت صوت الطفل وصياح الديك ودعاء الفجر، كنت مريضاً بائساً وها إني من نبل عنصرك وبراءة وجهك وطهارة قصدك ونواياك.. مَنَّ الله عليّ بالشفاء، كيف تذهبين بلا موعد وتعلنين الفراق؟ كم دعوت الله أن أنعم ببقائك وأتمتع بوجودك بيننا زوجة لابني. تعالي.. تعالي لأضع يدي على رأسك تبركا بنواياي الطيبة، تعالي يا زهرة العين ويا فسحة الخاطر ويا لمسة الحنان».

– ادعيا لي بالصلاح وبنقاوة الأيام يا عمي صالح ويا خالتي غزالة.

۞ ۞ ۞

تحركت الحافلة ونفخت الريح في أوداجها وصارت تسابق سرعة الغروب.

عندما دخلنا وأشرفنا على بنغازي كانت أجواؤها ما زالت غارقة في غسق الغروب اللاهث. نزلتُ وثلاث من زميلاتي إلى معهد التمريض ووضعنا شئوننا في غرفة. تناولت شيئا من الفاكهة ثم رحت في نوم طويل حتى استيقظت على صبح عزيز مبارك، وجدت العمل الذي يناسب تطلعي ومزاجي، وجدت كراسينيا تطالعني بدفئها العجيب، عادت لي رغبتي الجامحة إلى الكتاب، وجدت الوتر الرفيع يترقب مسيرته ويفتح طوايا أسراره في نفسي وفي قلبي ويخاطب رقة أنامل يدي والإيقاع اللاهث الذي ينتظرني.

تعاقبتْ بعض من أمهات الكتب على فكري من كتب التاريخ والاجتماع والمسرحيات والروايات، وكانت كتب الرواية هي الأقرب إلى نفسي، لقد وُلِعْت بالقراءة إلى أن أصبحت على مقربة من ملامسة الحس والوقوف على مشارف النقد والتمييز بين روعة هذا ورفعة هذا دون أن أعرف شيئا عن طرق ومسارات النقد الأدبي والاجتماعي، صرت أُجزّئ الفكرة وأحلل الشخصية وأرسم صورة الكاتب في خيالي فأسمع أهات معاناته وزفرات أنفاسه والبيئة التي كان يعيش فيها والدوافع المُستترة التي قادته إلى كتابة كتابه، أصبحتُ أعيش

عصورا متقلبة متعاقبة بشموسها ونجومها ومعاناة شعوبها.. «سبحان الله!».. أين كانت هذه الروعة والمكاسب الفكرية مُنْدَسة لا يلاحظها أغلب الناس عندنا؟ لا أقول منارات وإنما شموساً تجلل بضيائها كل فضاء.

بعض الذين قابلتهم أو تقابلنا فكريا في محفل من المحافل؛ مدرسة، صالون في المستشفى أو جلسة مع مرضى، هذه المقابلات جرت مع شيوخ دراسات قرآنية ومدرسين للعلوم القرآنية، ومن ألذ الجلسات وأقربها إلى العقل محاورة العقل وتوليد الأفكار، أنا لم انطلق من منطلق محصور عقيم، منطلقي يعتمد على المقارنة بعناصر شتى على اعتبار أن كثيرا من العلوم بل كلها تخدم بعضها، أقوم بهذا حتى يتحدد اللفظ ويُقوَّم المعنى ويثبِّت المصطلح والفكرة ويجسِّد الحجة، تلك النماذج نَفَرَهم التاريخ لا يجودون إلا بأفكار طافحة قاصرة بلا بُعد وخالية من العمق الصحيح، يأتون بتفاسير علوم من بدع الخرافات أو من صنع أفكارهم الهابطة، وعندما تتابع وبتركيز تجدهم يخطئون حتى في حفظ السُّوَر ولا يحسون بالمعنى المطلوب حتى في المقام الثالث للفهم البسيط، إن هذه السُّور والآيات لم تأت جزافا لتفسر حسب الميول والرغبات، الرقي بالعلم والتوسع في الثقافة والإدراك محاور مدعمة للتفسير وبناء العبارة ووضوح القصد.

ويتدرج السؤال يبحث عن الجواب بين تزاحم الآراء وتواتر الأفكار، يسخن المجلس ويعجز الذي يفتقد إلى التأمل وملَكَة التدبر في شئون الخلق وعدم الرغبة في مراجعة المتون، ولا شيء يأتي من فراغ، ويقف أحدهم عاجزا يدفعه الغضب شاعرا بالقصور ويقول في وجهي:

– «اسكتي.. اسكتي، كلامك كله خطأ، «شن» عرفك في هذا البحر، موش هذا مكانك، محلك مع المرضى، غير أدي واجبك كممرضة، «معادش» تُخشّي في مجال هو موش امتعّك! » هذا اللي مزال والله!! دخلن حتى ما بين الظفر واللحم.

– أعتقد أن كلامي لا يجرح شعور أحد، حاضر سأتوقف عن الكلام، ولكن أنت الذي بدأت الحوار ولا أدري لِمَ طلبت مني السكوت ونعتَّ مقامي بأنني بنت وممرضة ولا أصعد ولا أرتقي؟ وهذه نظرة غائبة وتربية لم يؤدبها القرآن، وأعلم يا سيدي، وهذا يؤسفني، أنك وأمثالك لا تملكون علوما كافية تنظم وتوضح أدواركم في فسحة الحياة، أُعْطِيَت لكم

شهادات كتبت على الورق، إن بيني وبينك فضاء متسع، أنت تنزل وأنا أرتقي، والذي بالعلم يرتقي لا ينزل، وصاحب العلم يخترق الزمن ويتجاوز مستوى القاعدة ويعيش آلاف السنين!

– لا لا .. وألف لا .. لا أريد أن استمع إلى كلام يعود إلى نسل أبليس...

– سيدي .. إنني أحترمك . وإننا في معرض حوار .. آمل ألا ترجعني إلى أول القول .. لا أريد أثارتك أكثر ..

– قلت المرأة عورة .. لا يمكن المساس بها .. أو جعلها مركز حوا ر.. فيه الأخذ والعطاء.

– لم يا سيدي؟ ..

– لأنها حرمة حرّم، أمام بدع اليوم، التي تخالف الشرع والقيم: ذهاب البنات إلى المدارس .. حرام، معروفة مثل هذه المدارس لا تربي ولا تعلم إلا الفسق والغباء – إن الذهاب إليها خروجاً عن الشريعة المحمدية.

– حتى وإن كانت خاصة بالبنات؟!

–حتى وإن كانت خاصة بالأمهات والجدات .. المدارس حرام وخروجاً عن الطاعة.

– نبقى هكذا داخل بيوتنا في الظل – لا نعرف حتى كيف شروط الوضوء، ومعرفة الصلاة وحدود الصوم؟

– استعمال الهاتف في البيوت .. حرام.
مشاهدة التلفيزيون والنظر إلى الشاشة الشيطانية .. حرام.
الذهاب إلى السينما ..حتى في اليوم الخاص بالنساء كما يقولون حرام.
استعمال الكهرباء في البيوت .. حرام ..لأنها خارجة عن المألوف.
وضع وإنجاب الأطفال في المستشفيات .. حرام زقوم.
تناول السيارة وقيادتها كما سمعنا عن نساء وبنات بعض المسؤولين .. حرام زقوم.
دخول المرأة لمجال التمريض والطب في المستشفيات .. حرام
المرأة إذا نظرت إلى رجل غريب بتمني واشتهاء، تطلق من زوجها ضمنياً، وهي المسئولة.

– سيدي الكريم .. وإني أحترمك لذاتك كرجل منفصل عن الكفر.. كيف عرفت الله؟ وإذا عرفته حقا.. ألاّ تخافه وأن تتطلق هذه المعاني؟ ألاّ تعلم إن بث مضامين غير مؤكدة، ونشر فتاوى على عواهنها بدون إثبات وتعزيزها إلى سند شرعي .. حرام زقوّم!!؟

ألاّ تعلم أن الحوار وتبادل الأفكار.. صحوة ورفعة بالعقل والوصول به إلى صدق الحجة، وقوة المنطق؟..

ألاّ تعلم أن الله ذكر العلم في كتابه العزيز أكثر من ألف مرة، وإنه لم يخص به الرجل وحده؛ « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» ، وقال الرسول عليه السلام: «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» سيدي الكريم .. أراك لم تذكر إلا المرأة في حديثك كله، وكأن ملائكة الرجل أكبر شأناً من ملائكة المرأة، عليك أن تعلم .. أن الحرام عند الله .. هو حرام على المرأة، كما أنه حرام على الرجل.

بعضهم يقول: أن المرأة نصف شيطان، ولكن من المؤكد أن أغلب فساد المرأة، لا ينشأ إلا من فساد الرجل. وأن نظرة الرجل إلى المرأة .. كما تنظر أنت إليها الآن.. على أنها أقل آدمية وإنسانية.. هو في الحقيقة منطق وسلوك فقدا قيمتهما وشرفهما لأن المرأة هي حواء وإنسان .. إذن هي أم الرجل .. هي الأنثى .. لولاها ما جاء طفل، ولا حيوان، ولا نبات .. ولا كون. وكذلك أقول لك يا سيدي الكريم مرة أخرى، إن العلم نهر كالزمن، يتدفق بالمعجزات والإبداعات والاختراعات والمقتنيات المتنوعة – ومنها كآلة يتبناها عالم اليوم في شتى المجالات، في الاتصالات والمواصلات. هي صحيح .. فيها وفيها.. وفي أحيان كثيرة تعتبر سلاحاً ذو حدين .. فيها الحلال وفيها أيضاً الحرام – ولكن بالعلم نميز بينهما: الهاتف مثلاً.. في استعماله فيه الرذيلة وفيه الفضيلة – وكذلك فاكهة العنب – إذا أكلناه فهو طعام شهي لذيذ يأخذ بلب الآكلين – وإذا حولناه وعصرناه خمراً .. فهو شراب مسكر، محرم .. والحلال بين والحرام بين.. هكذا علمنا رب العالمين. العلم لا يأتي هكذا بمجرد أني درست وخلاص– لازم من القراءة والتأمل وإدراك ما بين الفواصل والنقط ومجالسة أهل الدراية والعلوم، والعزم على المثابرة والتواصل. من توقف عن السير، انحصرت رؤياه وتوقفت حركة المشاهدة. سيدي فرّج عن نفسك – آراك حانقاً تكاد تنفجر – هدي من روعك، وكن مؤمناً .. رجل علم، وفسحة وروية. العلم يأتي من منافذ العقل، لا من مطاوي العاطفة

وضيق الأفق. قال الله تعالى: «وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». وقال أيضاً: «وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ » سيدي أقول لك بكل أسف: أفكارك هابطة لا تمهد طريقاً ولا تبني جداراً – أنت بعيد عن الصدق – لا تتوفر فيك شروط الحق وقيم المتعلم. هذا زمان وجب فيه التدبير والتأمل، وإحصاء المنتوج واستخلاصه. القرآن سيد العلم – والعلوم كلها في خدمة بعضها – ليس هذا ضد هذا، وهذا أنفع من هذا. سيدي الكريم .. زمان يجب أن نعيشه – بمكرماته، ومعرفة سلبياته، صحيح إنني امرأة .. إلا إنني إنسان – وصحيح إنني امرأة .. ولكن عليّ أن أعلم غيري من أهل وطني بما وهبني الخالق من علم وثقافة – والله يرى ويسمع، ولا يغفل عن بعوضة فقدت واحدة من عيونها.

– لا تخادعينا بكلمات حفظتيها عن ظهر قلب، ولا تملئين فمك مرة أخرى بآيات من القرآن الكريم، في أي وقت ومتى تريدين «لّا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ» وإنك امرأة، عليك أن تعرفي وتتعلمي.

لا حول ولا قوة إلا بالله – هذا الإنسان لا أدري من أي واد جاءت به المقادير – في متابعته تضيع الصيغ والأوزان – أعوذ بالله من هذه الرياح – التزمت لا يولّد إلا الجمود والتخلف. القراءة والتعلّم ليستا مروراً عابراً على صفحات الكتب، دون إدراك عميق وتأمل دقيق، والتوحيد بين العبارة والفكر، أدراك المصطلحات اللغوية والعلمية مفاتيح للعلوم. وأن القرآن الكريم يا سيدي منهج حياة متضامن مع الفطرة، وفكر متجدد في جوهره، وفلسفة متحركة العناصر تفسر الظواهر الناتجة. إن الله أمدنا بالعلوم والبصيرة الساعية.. ليس من أجل العلم فحسب، وإنما لكي نصل وندرك الحقيقة العظمى. وإن الله جميل يحب الجمال، وأنت وأمثالك لست جميلاً أيها الرجل.

۞ ۞ ۞

اصطحبتني معها واصطحبتها معي، إنها صاحبة الذكريات والريشة وعازفة الغيتار والكمان، لقد عاد النغم وتداخلت الألوان وتعلق الفؤاد، إنها كراسينيا. ذات يوم أحد لامس الجو أطراف الجمال وهامت بنغازي في عشقها السالف.

– عهود.. عهود انظري.. إني أتوق إلى البحر، هل يجوز؟

– ولِمَ لا؟ البحر يستوعب ويستقبل كل مريد إنه لنا جميعاً.

ذهبنا معا إلى شاطئ فضّي اللون لا يبعد عن بنغازي من جهتها الشرقية، نظرتُ إلى البحر والأمواج...إلى حواف الجبل الأخضر البعيدة ثم قالت في انشغال مفاجئ:

– أُحس أن هذا الشاطئ رموز ذات وَهْم ظاهر لعيوني يذكرني بأساطير اليونان، ما اسم هذا الشاطئ؟

– البرينيتشي.. إنها أميرة يونانية بارعة الجمال، لا شك في أنها جلست وتمددت على هذه الرمال ولامس الموج ثناياها، إلا أنها وُلدت قبل مولد التاريخ فأين زمانها من زماننا؟ وأين زماننا من الزمن الذي يأتي بعدنا؟ أنت كبيرة يا كراسينيا! انظري! انظري إلى ظلك الممتد على هذه الرمال المتموجة، أنتِ أستاذ كبير في الموسيقى خصوصا على آلَتَيْ الكمان والقانون، أنت صادقة وصاحبة تجربة قاسية، أنت كتاب كبير لا يحصى مضمونه، أنت التي ولَّدت في نفسي قَبَس الموسيقى وطعم النغم ومولد الألوان، ولَعِي بالموسيقى ودراستها جعلني أخصص لها الليل، أكثر من ثلاث ساعات وفي بعض الأحيان أواصل حتى صعود الفجر، أستلهم من كراسينا وقدرتها على تحريك الأوتار ليتجسم الصوت وينسجم النغم ويستقيم المعنى في دقة متناهية من الشعور والرعشات اللاهثة بين الوتر والآخر وحافة أو وسط القوس. درست كتابا عن تاريخ الموسيقى من الخليل ابن أحمد، إبراهيم الموصلي، أبو الأسود الدؤلي .. وزرياب. ومن زرياب إلى يومنا هذا، إنها خطوات واسعة وقدرات فنية يُحمد عليها، والحقيقة أن أي علم وإبداع لا يزدهران إلاّ في مروج الحرية بين أزهار الثناء والتقدير. تناولتُ عدة كتب مترجمة لدراسة النوتة وبحورها ومقاماتها عند أهل الشرق كالصين والهند وفارس وتركيا وكذلك عند العرب.

إن موسيقانا وأساتذتنا الليبيين لهم قدرات ومميزات في مستوى التمجيد. أخذت كثيرا من المعلومات والأفكار الثابتة ومدى قدرة النغم على التعبير وكيفية الوصول إلى مستوى الشهقة والإعجاب الفريد.

كان بودي أن أذهب إلى طرابلس حيث يوجد معهد جمال الدين الميلادي للموسيقى حتى أنعم بشيء من أنفاسه لأنه قدير وينفث أنغاما متخصصة ذات قدرة متفوقة وخاصة للغاية. الموسيقى الليبية موسيقى عميقة ومعبرة وتمتاز بإيقاعها الخاص لأنها جدارها المتين منع الدخول إليها والتلاعب بجوهرها المميز– منعها من الدخول في رحاب السوق الرخيص. وإنها الموسيقى! وإنه لإبداع يشكر عليه.

10

امتدت خطاي في مناطق بنغازي، عرفت شوارعها الكبيرة وأحياءها العامرة وأسواقها ومتاجرها، الشوارع لا تخلو من الناس الغادية والرائحة، زرت مساجد ومدارس كثيرة وذهبت عدة مرات بصحبة كراسينيا إلى فندق الخضرة الرئيس وبعض المباني الأثرية القديمة، وسجلتُ في معهد علي الشعلية للموسيقى – وصرتُ من زواره الملتزمين.

إن حضوري الثقافي وذوقي المتنامي بالتلذذ بقيمة التراث هما اللذان جعلاني أخوض هذه المحاور البراقة، أتمنى أن يكون كل الناس في مستوى بصيرتي أو أكثر. بعض المكتبات العامة تسري فيها الحياة ويتحرك فيها الكتاب بين أيدي بعض الناس ولا أدري كيف وجدت نفسي في مكاتب صحيفتي «برقة الجديدة» و «الحقيقة» ومدى الحفاوة التي استُقْبلتُ بها لدرجة الغرابة، تواعدنا أن نتعاون وأن أمدهم بما أقدر وبما تنوب به قريحتي من مقالات وخواطر وبحوث صغيرة ترتبط بتخصصي في مجال الصحة والعناية الاجتماعية والتثقيفية، زرت كليات الحقوق والآداب والتجارة، ثم تعاقبت الزيارات خصوصا إلى كلية الآداب في مُدرج رفيق المهدوي مساء كل يوم خميس أذهب إليه أحيانا برفقة كراسينيا أو مع ممرضة طموح تهوى الأدب وتسعى إلى الثقافة لنستمع إلى المحاضرات الهادفة التي تُؤَدى وتُلقى من قِبَل دكاترة وأساتذة كبار في الفكر الإنساني والمنطق والتاريخ من أجل نشر الثقافة والعلم والتربية بين الناس.

تخلَّى المثقفون العرب عن دراسة التراث والاهتمام بالذاكرة التاريخية والتربية الإسلامية وحَلَّ بهم كساد وغمرهم طوفان الاستلاب الثقافي وانتزع منهم الأثر القديم وابتعدوا عن الدين واعتبروه نعت من الماضي المتخلف، إنه نقيق أساطير وشدّ إلى الماضي، هؤلاء المثقفون يمثلون أفكار ومبادئ هذا الزمان، الشيوعية، الإمبريالية، الوجودية، الرمزية، السريالية. إنهم رهن أفكار سارتر وماركس. الوجودية هدمت ولم تبنِ، الاشتراكية أفقرت ولم تُغنِ، مبادئ نحس بأثرها اللافح ولم نرها، منطلق الستينات كان خضم ومخاض نامياً، فمتى ينتج زبدهما؟ المثقفون والكتاب العرب أغلبهم أقلامهم هدايا من الحاكم!! ورهن دوافع مخابرات غربية وشرقية. لأنه لا يمتلك شخصيته ولا يعرف ما يفعل، لأنه فقير جائع، محدود الأبعاد والمعالم.

تكراري وتعلقي بالذهاب إلى مدرج رفيق والاستماع إلى ما يقوله المثقفون ولَّد في نفسي فكرة طائشة حاولتُ مسح أثرها من ذاكرتي وطردها من عقلي إلا أنها بقيت واقفة تلح وتصرخ حتى هيمنت على خواطري وأصبحت تتجسد وتكبر وتنادي. خضعتُ لعبارة: ولِمَ أنتِ؟ ألا تقدرين؟ الخطوة الأولى.. الخطوة الأولى! العطاء مما تملك والأخذ بقياس ما ترِينه في هذا المضمون.

طلبتُ من مسجل الإدارة أن يخط اسمي في محاضرات الخميس القادم بعد أن انحصرت الفكرة في مخيلتي وتحددت قيمة العناصر المفضلة لهذا المقال في نفسي.

مع اقتراب يوم الخميس الموعود، أتممت كتابة المقال الذي يحتوى على أربع صفحات، حاولت تنقيحه من الكلمات الركيكة والعبارات الزائدة واهتممت باستقامة الأسلوب وعلامات الترقيم وفواصل الوقف، إن من البيان لسحرا.. القدرة على الإلقاء الرفيع ومراعاة فن التحكم في الصوت ومخارج الحروف والموازنة بين الثقة في النفس وقدرة المشاعر على السيطرة، القدرة على الإلقاء الرفيع يتفوق أحيانا على الفكرة، أي النص نفسه، والعكس صحيح!

قلَّبت مقالي من عدة جوانب وقرأته عشر مرات بين جالسة وواقفة، وفي كل مرة استحضر نفسي في المدّرج أمام الحشد الكبير وهو في صمت مطبق يترقب ما أقول.

بدأ المدرج يحتشد شيئا فشيئا بروّاده، وربما اليوم أكثر، شُغلتْ كل المقاعد وامتلأت الصفوف والناس صارت تستند إلى الجدران، أوه!. اليوم يختلف!!.

ها هن ثلاث نساء يدخلن ويجلسن على مقاعد منفردة، إحداهن تحمل ملفا، ربما تريد أن تحاضر هي الأخرى، هذا أمر يدعو للتقدير. بدأ أحد الدكاترة في إلقاء محاضرته وكانت طويلة نوعا. لم يحاوره إلا عددا قليلا من المتسائلين. المحاورة وإلقاء السؤال حول مفهوم النص أجدر وأنفع من النص ذاته أحيانا. حلّ بعده محاضر آخر وكان مقاله حول الاقتصاد ودوره في إنماء الثروة البشرية في المجتمع وإن قوة الدولة تتمثل في استثمار شبابها في العناصر الهادفة لا في ما تملك من سبائك الذهب وأطناناً من الكذب.

هفا صوت مكبر الصوت ينادي: «الآن الآنسة عهود فلتتفضل مشكورة».

ما كادت تظهر وتقف على المنصة حتى عصفت موجة حادة من التصفيق وامتد هذا الابتهاج العاصف لحظات تعبيرا عن المفاجأة وتقديرا لها، كان رد فعل الفتاة ابتسامة خجولة، يدها ما زالت تمسك بملفها، سكنت الهمسات وجاء الصمت الرهيب يترقب فلول المنتظر، طرحت ملفها على المنضدة ورتبت أوراقها، نظرت إلى الأعلى ثم إلى الأمام وهي شبه باسمة محمرَّة الوجنتين خجولة التقاطيع. بدأت، صوت ناعم لذيذ الوقع، أول مرة أسمع محاضر يُبَسْمل قبل أن يبدأ قراءة نصه، استقامت في القراءة، تنفست الصعداء، تداخلت في العروض ومقامات جزالة الأسلوب وطرح الأوشحة الخلابة، ومضات في الأدب العالمي وعصارة المخاض، الأدب تصنعه اللقمة، الخطوة والكلمة ويظهره الإبهام والسبابة وينقله القلم والإزميل والريشة والموسيقى. الإنسان واحد ولكن القدرة على التفكير السليم هي المشكلة، الاختلاف بين هذا وذاك.

من ذلك الشوط القصير تعرجُ في سلاسة متمرس إلى الأدب العربي المعاصر وبنبرة المبتدئ في القول تثبت أن ليس هناك أدبا عربيا بالصورة والعمق الذي يتوخاه الأدب الغربي، اللهم إذا استثنينا مصر وشعراء المهجر، والآن تحاول أن تدخل الطريق لأن الأبواب إليه مفتوحة ومقدّرة، وأعلم أن الثورة الأدبية التي كاد ينهض بها الدكتور طه حسين ويشرف بها على كامل الوطن الكبير قد تراخت أوصالها وترهلت عراها.

في الوطن العربي يوجد أدباء وسادة فكر إلا أنهم لم يجدوا من يأخذ بأيديهم ويهتم بهم، بل تراهم يُضطهدون ويجعلونهم مقام سخرية وعقبة العقدة خصوصا من مناكفة بطانة الحاكم، فمصر الوحيدة التي تجرد مفكريها وسادة الأدب من المضايقة، من الباشا محمد علي

وحتى الملك فاروق. الأدب جسد وروح وانفعالات وتاريخ ومستقبل ويضفي إلى ساحة اليقظة الكبرى!

إن قصة عنترة وعبلة لا يجب أن تكون دائما هي المثال ولو كان من بعيد، إن جبالنا وسهولنا وغاباتنا وصحراءنا وبحارنا، بيئات ملائمة لكل فن ومجتمعاتنا البدوية والريفية والحضرية وما تتضمنه من موروثات وعناصر جود لكل من يبحث ويريد.

اللغة الجامدة المتكلسة ينبغي أن يرفع الطين عنها وتتحرك فواصلها حتى يسري فيها الدم وتستيقظ وتدرك بُعدها وعزلتها حتى تكون صاحبة وجود زاخر بالنشاط والذوق، إن القوانين والمذاهب في الأدب لا يجب أن تكون ثوب قضاة ومحاماة لا يخرج عنها الأديب، الأدب فن متنامٍ وجمال تزهو به المشاعر قبل العيون واللسان، الأدب هالة كبيرة ينتقل مع موكب الشمس إلى رحابة المدى البعيد.

انتقلتْ مرة أخرى إلى طبقة أخرى من الأدب، «إن جداتنا وخالاتنا وعماتنا اللواتي عشنا في محيطهن وهن على مشارف الشيخوخة، صفحات على جبين الذاكرة، وإنهن ليسن من لاشيء، إن القصص والخرَّاف الذي عشناه يُروى ويُحكى من أفواههن بلسان خيالي مثير ومبين هو الذي ربَّى فينا سعة الخيال ونزعة الطموح والوفاء والمُثل الفاضلة والشجاعة وقوة الشخصية وجعلنا نعيش حياة نبيلة نلتمس فيها الرضا والمتعة والوفاء بالعهد والمروءة ونظرة فوق مستوى الخوف والريبة. إن شخصية إمحمد بن سلطان، هو الفارس الموعود، ذلك الرجل الجميل الطلعة الذي يعتلي حصانه بجرده الأبيض وطاقيته الحمراء وحذائه الأسود وسيفه البراق، إنه الفارس الموعود لأي فتاة تحرك قلبها أو تعلقت عيناها إلى مورد الطريق، إمحمد بن سلطان هو الابن المخلص للأم المريضة التي رأوا شفاءها في عشبة غريبة تنبت في مجاهل الأهوال وكهوف الأغوال، إمحمد بن سلطان هو الفارس الشجاع والأمير المخلص الذي يحب شعبه ويعيش معه في خيره وشره، هذا هو إمحمد بن سلطان، الشخصية المرغوبة التي تركبُ الأهوال من أجل مريض يريد دواء، فتاة خطفها ساحر قدير وسكن بها في صومعة على قمة أعلى جبل، كل أعماله في سبيل الخير وإعانة الناس ورفع الظلم عنهم. إنها قصص كثيرة لا تحصى، ما تربى مَنْ لم يسمع عن هذه القصص وهذا الجانب الكبير من هذه الحياة التي ما زالت مستترة، إنها مراجع للصدق ومناهج تربوية أصيلة.

الأدب الرفيع هو الذي يُرغِّبنا في القراءة ويخرج للناس ليهدي إليهم الراحة والروح ويرفعهم إلى حيث يستمتعون بالجمال ورفعة النفس وفرحة الحياة التي تأنس إليها وتنعم بها كرام النفوس».

ما كادت تنتهي من قراءة خاطرتها وتنظر إلى الأمام حتى عصفت مرة أخرى موجة من التصفيق المتواصل بل أنّ كثيرا منهم وقفوا إجلالا لها وجاء أحد الدكاترة وحياها بالمصافحة وعقب على مقالها تعقيبا مفيدا وقال لها:

– إنك قد بدأت في صعود السلم الجميل، إن الذي سمعناه ما هو إلا عزفاً لذيذا وقصائد متعددة فليوفقك الله ويثبت خطاك كما أقول لك داعيا ومتمنيا أن تشاركينا في رحلة كلية الآداب إلى عُقْبة الباكور يوم الأربعاء القادم مع زميلتيك.. فمرحبا بكن.

أصبح وضعي النفسي والاجتماعي في بنغازي مستقرا خصوصا بعد أن وجدت البيئة الفكرية في الجامعة وعند بعض الصحف والكتّاب والشعراء، أنا الآن بين كراسينيا، التي تعتبر رافدا كبيرا وموسوعة مترامية الأطراف في إعانتي على واجباتي في عملي كممرضة ودفع نفسي نحو الطموح والمزيد، وبين بعض الزميلات المخلصات خصوصا من اللواتي حالفهن الفكر وجعلن الكتاب سمير الليل ورفيق النهار.

رؤسائي في حالة انبساط وتقدير كاملين من قدرتي الجيدة في عملي وفهمي للأمور واحترام ذاتي ووضعي، تقدير المعايير ومراجعة ما يتطلّب ومعرفة وفهم ما يُطلب مني وأن أكون فوق مستوى الارتباك ولا أكذب على نفسي وهذا لا يتأتّى إلا بثقافة ذات عناصر متفرعة تشمل أكبر ساحة يسقط عليها الضوء!

يقولون إن أسوء ما يقدم على مسرح حياة أمة وشعب، جيل من أنصاف المتعلمين، خصوصا إذا امتدت يداه وتمادت خطاه وسادت نواياه.

إذا تبنّيت عِلما أو فنا أو أي مجال معرفي وجعلته مشرق طموحك ومسعى رغباتك لا بد أن تتجمع على نواته شروط الدراية والفهم والإدراك والتعمق في أجزائه وجوهره وبعض من أسراره حتى يتسنى لك البحث العريض في تفاصيله ومفاصله ومقارنته وتزيد فيه على غيرك.. إذن فهو علم يرفعك ويبصّرك ويفيدك ويفيد غيرك، أما إذا كان العكس صحيحا يعتبر «تمشات حال» ومرماه التعيّش والقوت كما تجري بعض الأمور عندنا، فهو مسحة

خفيفة لصورة مشوهة، فهو علم ينقص لدى صاحبه ولا يزيد وأضراره تتجاوزه وتتعداه إلى غيره!.

[.. مستشفى طرابلس في حاجة إلى ممرض أو ممرضة مقتدرة في إدارة معمل خاص ودقيق جداً في المستشفى، فمن يرى في نفسه الكفاءة والقدرة، يتقدم، والقبول لا يتم إلا بنتيجة امتحان يعقد في طرابلس، علما بأن الإدارة غير مسئولة عمن يسافر ولا عن إجراءات السفر].

قرأت الرسالة أكثر من ثلاث مرات، وهي رسالة موزعة على كل المستشفيات، وربما تدل على وظيفة مغرية ولا شك أنها تجذب الكثيرين، ولكن طالما أن القبول لا يتم إلا بنتيجة امتحان يجرى أمام الملأ، فهذا ما يدفعني إليها والمشاركة فيها.

11

[تأتي أمور إلى من لم يَسنح لجدّيتها،
وتغيب هاربة عمن يرى أمله فيها!] [1]

ذهبت إلى طرابلس وأديت الامتحان بكل ثقة ورحابة صدر من بين عدد كبير من الممرضين والممرضات، وقد نجحت بامتياز مع كلمات الشكر، وها أنا الآن في بنغازي وقد رتبت أموري وحزمت متاعي ورجلي على سلم السفر.

تحركت الحافلة ونفخت الريح في أوداجها وحالا صارت تسابق سرعة الغروب البادئ.

أشرفنا على صبح عزيز مبارك ودخلنا طرابلس الجميلة، يلوح منها الحسن والجمال وكرم الوفادة وطيب المعشر، يأخذني منظر النخيل الباسقة وبساتين الزيتون وأوشحة الغاب، مدينة زاخرة ترنو إلى الأفق المشرق بالألوان، الأمطار تَسيّل الغدران وتغسل مبانيها وشوارعها.

نزلتُ وثلاث من زميلاتي في محطة الباب الجديد وركبنا سيارة خاصة من وزارة الصحة

---

[1] المؤلف

كانت تنتظر قدومنا ونزلنا في معهد التمريض بشارع السيدي، وضعنا شئوننا في غرفتين، قُدم لنا إفطار الصباح، ونمت نوما متواصلا حتى الظهر من أثر السهر والتعب!

وجدت تخصصي ومكاني المناسب في العمل ولم تنقض شهور حتى أصبح لي مركزاً مهما يُرجع إليه، وعلى هذا الامتداد الرحب تدرجت بي خطى الحياة وانتقلت إلى معبر آخر تتوسطه جسور تتدرّج إلى أعلى.

– هل أنا في مكتب الأستاذ محمد فخر الدين؟

– نعم، مرحبا وأهلا وسهلا.. تفضلي يا آنسة.

– إذن أنا في حضرة رئيس تحرير جريدة طرابلس الغرب.

– نعم يا آنسة.

– مكتب جميل، فسيح وأنيس ومن فيه أجمل وأكثر أُنساً.

– ازدان أكثر بوجودك فيه، أشكرك، كأني أمام حضور مميز، إني استغرب من هذا الثبات في العرض وهذا الأسلوب الرفيع في القول، لا احتمل الجلوس وأنت واقفة تخاطبينني بهذا الطرح النبيل واللفظ الزاهي، تفضلي اجلسي يا أفضل من دخلت.

– أشكرك، أنا من قراء صحيفتك، أطالع افتتاحياتك ومقالاتك، لا شك أنكم تبدلون جهدا وعناء من أجل بناء الكلمة والبحث عن الفكرة، حرية المرأة. هكذا تقول في افتتاحياتك.

– هذا إطراء أكثر من اللازم.. الآنسة من بنغازي؟

– من درنة.

– أهلا وسهلا، مندوبة لأي صحيفة؟ أو من قسم الإذاعة والتلفزيون؟

– السيد محمد فخر الدين، زُرتُ منزلك استُقبلت فيه وأكرموا وفادي بكل جيد وجود، وتحاورت كثيرا مع أهل بيتك، وإنهم على مقام عالٍ ومستقر عزيز.

– الحمد لله، هذا من طبيعة حياتنا.

– أنا لست بمذيعة ولا صحفية وإنما من أهل المقام الجمالي، الفن وحب الثقافة، ووظيفتي ممرضة، عالجت نفسي وأحب أن أعالج غيري!

– ممرضة؟! أهلا وسهلا!!أهلاً وسهلاً!!..

– السيد محمد فخر الدين.. يقول الله في كتابه العزيز [كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ] .

– صدق الله العظيم – خير إن شاء الله!.

– كتاباتك عن حرية المرأة وخلع الفراشية وسحب الخمار وخروجها إلى الشارع سافرة، كتابات متعددة ومطولة، وأحيانا مثيرة للحوار والتحقيق فيها، وزوجتك وأهل بيتك غير راضين، بل غير مهتمين بما تقوله عن الحرية أو عن العبودية! إذن كتاباتك تختلف اختلافا جذريا عما هو في واقع أسرتك.

– أنا أكتب عن حرية المرأة بالكلام المباح والمباع ولكن في بيتي يختلف الأمر، أنا أكتب عن المرأة كما أكتب عن أحداث الساعة وأهل السياسة، كتابات دوّامة خارج نطاق صدقي وانفعالاتي.. أعرف أنها كتابات غير صادقة، ولكن من أجل الإعاشة!

– يا له من زمان! إذن أنت تعمل خارج نطاق ضميرك وتسبح في بركة النفاق.

– عفواً يا آنسة، قلت لك من أجل قوت عيالي، وأنت ألستِ في هذه البِركة؟!

– إذن أنت لست حراً، الحرية في هذه الشئون مسئولية والتزام واحترام وتقدير بمن وبما يحيط بك، حاول أن ترى أبعد وأفسح مجال خطاك إلى أفق أوسع ولا تجعل «الروتين» نهاية المدى، أنت مسئول، أنت مسئول عن نفسك وعن أولادك وعن القراء وعن الفكر والنمو الثقافي وعن المستقبل وعن التاريخ!

الفكر يا سيدي الكريم كبناء الجدار لا تستقر طوبة إلا تحت طوبة أشد قوة وأكثر دقة في الثبات، إذن أنت أو غيرك، وأحسب أنهم كثيرون، لا تُعتبرون من صناع الفكر وبعث علم وثقافة يعززان ويسهمان في بناء جدران صرح نهضة مرتقبة!

إن البطن الجائعة لا تخلص في أداء الواجب واليد المرتجفة لا تبني جداراً قوي العزم ثابت الأصل حتى تستقر على عماده حضارة يقوُم أصولها الطموح وتشدها متون الصدق ترى نورها يسري على سبل المستقبل وتسمع في هدير حركتها أصداء ورجع وقع منازل نسبية التاريخ. سيدي الكريم، لا بد من الشعور بيقظة الضمير وإلزام الفكر للمنهج ومحاسبة السلوك الذي لا طائل منه، الإنسان كيان قائم بذاته، كرُمه الله وعلُمه وفسح له النور وأمد له السُّبُل، وإن الله هو الذي يُجري السحاب ويُنزل منه غيثا يسقي كل حي ويُثمر الزرع ويُنتج حبة القمح.

۞ ۞ ۞

لم تنقض ثلاثة أشهر على وصولي طرابلس حتى زرت كل معالمها البارزة، ذهبت في رحلات سياحية إلى آثار صبراته وأخرى إلى لبدة، وقام المعهد الصحي بتنظيم نزهة إلى منبع الشرشارة بترهونة، تلت بعدها زيارات عديدة، وكلها موفقة، دعوات و «عزايم» وولائم من عائلات مرموقة وأخرى بمناسبة أفراح وأعراس في طرابلس وغريان والزاوية والخمس ومصراتة. أسمع أحلى الكلام وأجمل الثناء وأتناول أبجل ما يخطر على شهيتي، وكما يقولون: «على نية هلها حاضرة بركتها».

في إحدى الرحلات ألْتقيته.. قال:

– اسمي زهير.. فمن أنتِ يا أميرة الوادي؟

كنا فعلا في وادي الشرشارة، نهار دافئ من أيام آخر الشتاء والجو يدعو لممارسة الحوار. إنه متوسط الطول يميل أكثر إلى الوسامة منها إلى سمات الرجولة، متأنق متعطر يحاول أن يكبح شيئا من الارتباك الداخلي، كلامه غير منظم وأفكاره لا تشد الواحدة الأخرى في تسلسل مقنع، لا يتوقف عن التدخين، يلف سلسلة مجموعة مفاتيح حول سبابة يده اليمنى ليظهر أنه يمتلك سيارة وأنه صاحب ثراء. بعض من جُمل كلامه تتخللها كلمات باللغة الإنجليزية حتى يبدو لي مثقفا ويستنشق أنسام الغرب الأوروبي!

– هل أنتِ شرقاوية؟

– نعم، من درنة.

– هل أعجبتك طرابلس؟

– جداً جداً.. بلادي ليبيا كلها تعجبني.

– الدرناويات جميلات ومتحررات، وأرتاح كثيراً للهجة والنبرة الخاصة بكم يا أهل برقة.

– أترى هذا بجد يا زهير؟

– لِمَ لا تسايري خطواتي؟ هل ترين في الأمر إحراجا؟ لِمَ تتحركي ثم تقفي؟

– لا أبداً.. أنا هنا معك.

قطعنا شوطا طويلا في مدى مد الخطى، أحيانا نتكلم وأخرى نصمت. لأنه غير واسع المجال وإفساح للكلمات أن تأخذ أبعادها وتنقش أثرها على أوتار القلب، فكان حديثه مقتضباً وجُملا قصيرة لا تعني قصدا كاملا، أخبرني عن عائلته ووضعها الاجتماعي وعن مستقبله ونظرته المتفائلة وعن العلم والثقافة، خصوصا عندما وجدني أتحدث بلغة مرشدة وتعابير مجسدة وثقافة مثمرة.

– هل أنت طالبة أو مدرِّسة أو ضيفة؟

– بل ممرضة في المستشفي الرئيسي.

– ماذا؟ ممرضة؟ كيف تكونين ممرضة؟ هذا غير ما كنت أتوقعه!

– ماذا في الأمر؟ لِمَ تغيرت ملامح وجهك عندما عرفت صفتي؟ لِمَ تنظر إلى أعلى؟ هل شوهت مقامك؟ نحن حين نتقلد ساعات العمل نهاراً أو ليلا نرتدي ملابس بيضاء، هل صدمت؟

– لا.. لا شيء على الإطلاق، مجرد أفكار قصيرة عابرة.

– طيب، وإن أجبتك بأني طالبة أو مدرّسة؟

– يا ريت! كان أفضل.

ضحكت في أعماقي وغيرت مسار الحديث، إلا أنه لا يود ذلك فرجع بحديثه حالاً إلى الوراء، وتابعه عن الفتيات والفتيان والمغامرة العاطفية، فمرة يقترب حتى يكاد يلامس كتفي، بطبيعة الحال إنها الفطرة والانجذاب، لا شك أنني أمام رجل وفي غمار تجربة

وحوار ساخن، نسيت ذاتي هذه اللحظات، وشعرت بمحور دافئ يسري في دمي، عيونه معلقة في الفضاء وأفكاره تجوب خياله، تكلم بعد خطوات طويلة:

– اسمك عهود؟

– نعم، ما هو الذي تراه فيه؟ اسم لم يذكره أحد إلا عندي.

– ولكنه ضخم وجميل وعندما أتأمله أشعر كأنني أرقب عالما أتمنى أن أكون فيه. ولا أدري كيف جئت به؟ أود أن أتعرف إليك أكثر يا عهود.

– ها أني في رابعة النهار وفي غمرة الضياء، فماذا تريد أكثر؟

لقد زارني في مقر عملي ثلاث مرات وقدم لي قلم حبر جميل فرحت به وشكرته على ذلك وإنه من واقع القبول والبداية. لحق بي، وأسرة المعهد الصحي في نزهة بغابة «جود دايم»، ضايق وجوده مشرف الرحلة، خصوصا عندما طلب مني زهير مرافقته ومسايرته. وقف الاثنان في عناد، وتصرف زهير تصرفا أخرق وتبادل مع المشرف ألفاظا ما كنت أتوقع أن تصدر عنه: «انت شي دخلك؟ هذي من معارفي وستصبح زوجتي، أنته، تتجسسوا على حركات الناس، غير حافظوا على بيوتكم الخربانة». مع كل الذي أجراه مع المشرف فإنه ظلمني وأدخلني ضمن حدود أنا بعيدة عنها وأقامني في وضع شك وريبة في أخلاقي! حاولت مسايرته لأهدئ من غضبه:

– زهير.. لِمَ تفعل هذا؟ ألا تراه عيبا؟ أهكذا تعامل الناس؟..

– ناس منحطة يا عهود، متخلفة لا يقدّرون حرية الشباب، هذا منطق يقوله ذلك السخيف؟

– أنا لم يحرجني إلا منطقكَ أنتَ، إذا كنت ترى الناس بهذه الصور.. فمن هو أنتَ؟! لقد أحرجتني وأخجلتني، فما الذي بيني وبينك أيها الرجل؟

– ألسنا على وفاق واتفاق؟

– لا.. من أنتَ ومن أنا؟ وأين أنتَ؟ وأين أنا؟ بهذه السرعة وفي هذا المجتمع؟ تحت أي

ظرف من ظروف المنطق؟ حتى الدجاجة أو العنـزة لا يدفعهما منطق الفطرة بالقبول بهذه السرعة! إذا رافقتك وتخليت عن سبيلي لمن أترك مكانتي الاجتماعية والعلمية، إنني من بيئة صعبة التفسخ. من أنا ومن أنتَ حتى تطلبني بهذا الأسلوب؟!

– أرجوكِ لا تحاجّيني في أمر تعاهدنا عليه.

– إني لا أعرفك، وكأني لا أعي ما سمعته منك، معاملتك مع المشرف مسحت ما كنت أتمناه.

– ابتسمتِ في وجهي وتمشيتِ معي في ذلك اليوم، أنسيتِ ذلك؟

– أنتَ الذي دعوتني، وبطبيعة الحال كنتُ على حذر منك!

– أنك تميلين لي.

– من المفروض أن تترك هذا الشعور في مساعيك ولا تصرح به إليّ، ذكرت لي أنك في مستوى الجامعة ومن الواجب عليك أن تراجع ما فاتك من الدروس وتعي ما تقرأ، المعرفة موازنة عقلية وفكرية وليست تداعي صفحات أو مظهر خداع لا يقيّم المستوى الحقيقي.

– إني أميل إليك يا عهود.. إني أحبك!

– لو أن ذلك قبل الآن بمدة طويلة، إنني مشغولة القلب، إنني مخطوبة يا زهير.

– مخطوبة؟ تطردينني يا عهود؟ أنت بلا إحساس.. فعلا أنت ممرضة!

– ألفاظ جائرة لا لزوم لذكرها ولا لزوم أن نتقابل. وافترقنا!

قالت نفيسة:

– هيا نتمشى قليلا يا عهود، ملامح وجهك لا ترضي نفسي، منذ مقابلتك مع ذلك الرجل وأنت في وضع متقلب المزاج، اتركيه مع كل خاطر يسعى إليك. إننا وإنهم في مجتمع «غضيب»[1]!

– أغرب ما في الإنسان جوهره، كثيرا ما ننخدع وننساق مع ملامح الوجه وجودة البيان وحسن الملابس والأماني والأحلام الجميلة، فضائل مجنحة نادراً ما تلامس الأرض، كنت أرى أن العملية التعليمية والتثقيفية هي تحوّل بيئة قديمة بكل ظروفها إلى بيئة أخرى

(1) المؤلف

جديدة تواكب فسحة الحياة النابضة وصيحة اليوم الملتزمة، بناء الإنسان علميا وثقافيا لا تتم بدون حرية الإرادة والمحافظة على سلامة التفكير، وهذا ليس مباحا في أيامنا لأن الرجل الذي يستمسك بمقاليد الأمور وله شجاعة المثقف المسئول لم يولد بعد، وكذلك المجتمع الذي لا يرى أمرا إلا الطعام مَثَله كَمَثَل الأنعام التي لا تصدر صوتا ولا ترفع رأسا ما دامت «العلفة والخرطان» بين ناظريها. بناء الإنسان علميا وثقافيا لا يعتمد على كتيبات ومفكرات تُقرأ وتسجل حتى يحين صبها في وريقات الامتحان من أجل أن يتحصل على شهادة يسترزق بها! التحول البيئي إلى الأفضل في نظري، ونحن على مشارف المدى البعيد المترامي، هو إحياء التنشئة من جديد بروح غيورة مؤمنة، تركيب وخلط المادة المفقودة ومزج العناصر الهاربة منها وسد الشقوق المتهالكة ثم بعثها في محاور نشطة في نفوس مؤمنة متطلعة كريمة. ما زال التخلف والجهل يخيمان على ربوعنا يا نفيسة، ذلك الشاب الذي كان يتمشى معي يرى نفسه أنه يكلمني بمستوى جامعي إلا أنه يفكر وينطق بمستوى طفل في السنة الثالثة ابتدائي، التعليم والثقافة ليسا بمعايير ومسميات شهائد تقدير مكتوبة على الورق.. إنه أجوف!

– وما الأمر في ذلك؟ لا تجعلي له حسابا، أنْسيه. إنه ورقة خريف.

– هو كفرد لا يهمني أمره، إلا أنه نموذج حي من مجتمعنا، النموذج الذي سيُعول عليه مستقبلا. مضطرب خامل، عيونه وبصيرته تحت قدميه، إنه لم ينجذب إليّ من أجل الهدف البعيد وسبر صيرورة الزمن، كان همه الوحيد جمالي وتقاطيع محاسن جسدي، إنه لا يعي ما أقول بل إن غايته الموعد واللقاء وهذا الأمر ينعكس على كل مجريات اليوم عنده، يرى ولا يدرك ما أرى، يسمع ولا يزن ثقل ما سمعه، لا يتفكر ولا يستقرأ، همه في ساعته ولا يدرك ما يأتي به غد. هذا كل ما استشفيت منه خلال شهر، سوى لقاءات بالهاتف أو وجهاً لوجه كما حدث اليوم.

– ها..ها.. ولكنك أُنثى حساسة، جذابة وجميلة، فمن أي واجهة أخرى تُراه ينظر إليك ويحبك؟

– هل موقف اليوم ترينه أخلاقي وتعبير ملتزم؟ إذن لا تفهمين معنى ومقصد الثقافة إذا كنت من هذا المنطلق! إن من البيان لسحرا ومن الشعر لحكمه .. اللسان المستنير والمسترشد قليل الخطأ وأشد وقعا في النفس والعقل، هل تفهمين ما أعنيه يا نفيسة؟

– لستِ وحدك يا عهود، كلنا نقاسي ونعاني الأمرّين. الشاب، الرجل، الشيخ، وعلى مستويات قديرة، الكل يريد بأرخص ثمن وبأسرع وقت وعلى أكمل وجه، ومخالب الوحش لا تخفي أظفارها عن فريسته، حتى تأتي فريسة أخرى طازجة مستسلمة! وهكذا.. كلما أظلم المكان وساد من حوله الصمت تأتي ظروف الفرصة، هكذا يقولون! ويأتي صهيل الخيل ونباح الكلاب. إنه الخطأ.. الخطأ في التقدير، والكيد والهوان يقعان على مصير الفتاة والمرأة، إنه السم الزعاف والسبيل المسدود، إنه الظلام الدامس والحبكة الدرامية، صيحة شر ودعوة مومس.. إنه الاختلاط يا عهود، الاختلاط بين الجنسين يا عهود، إنه الدمار للمجتمع الإسلامي وتهتك مقدمة الثوب! الاختلاط يؤدي إلى الاختلاء.. الإلتساق.

– إذن.. هل نرجع إلى الوراء يا نفيسة ونقبع وراء الجدران كما كنا سلفاً؟

– ليس هناك وراء أو تقدم، هناك تقدير وضبط حدود وغرس روح النظام في القلب والذوق والضمير واحترام حدود الجنسين كما في قول الذي خلق الذكر والأنثى. وماذا بعدُ يا عهود؟

– الذي بعد يا نفيسة! لقد قلَّبت مفاهيمي وتصوراتي، فهل نحن على خطأ حقيقة؟

– جئتِ بالكمان ووعدتنا بالعزف، وها قد حان موعد الرجوع ولم تعزفي.

– إذا لم أعزف على الأوتار فإني أشاطر العزف على الحروف والكلمات، فكلها أنغام تسري وأنهار تجري.. أخاطب الليل كما أتحرك في النهار، وأتمنى لشعاع الشمس أن يضيء العقول ويصل إلى كل مكان، كم أحب رؤية وميض البرق وهو ينبلج من فجاج الغمام، وكم يسعدني عزف الرعود وهي تهز الدنيا خوفا في النفوس، ويهدأ بالي حين يتجه سمعي لوقع القطرات ورخات المطر ويزهو خاطري عندما تتجمع الغدران والتقاء بعضها ببعض لكي تكوّن جداول كبيرة جاعلة لنفسها سواق و «فحولاً» يجري فيها الماء منساقا بخريره العذب ليسقي الزرع والشجر، ومنها ينبثق الزهر ومن الزهر الثمار ومن الثمار تخلّد الحياة. لِمَ لا تنظر إلى هذا يا أيها المسافر في مركب خيالي؟ وقبل أن تخاطبني تأكد، هل أني ملت إليك أم أني ما زلت أتدرج على الضفاف؟ أنا ممرضة، وهل الممرضة لا تحس بحركة الحب توخز قلبها ويموج الدفء في أوصالها؟ وأنها بائعة أكثر مما تشتري؟!

12

في إحدى الأمسيات نظمت وزارة الصحة والشئون الاجتماعية ملتقىً نسائيا تثقيفيا متنوعا فيه المقالة المرشدة وخطب اجتماعية زاهية وفرقة للرقص الشعبي وأخرى للتمثيل المسرحي وفرقة للعزف وفنانون مشهورون، وكذلك استدعيت أنا على أن تلازمني آلة الكمان.

مسرح صالة سينما الحمراء تعج بأصوات النساء وبكاء العويل وصياح الأطفال. يكلمك من يجلس جنبك فلا تفهم ما يريد ولا تسمع إلا صوته يشبه الهمس من شدة الضجيج الناشئ. ما كادت المذيعة تقف لتقدم فصول البرنامج حتى واجهتها إحدى الجالسات بصوتها الحاد و «بصحة وجه» وقلة أدب: «ها.. هي أنتِ اللطف! خيرك لابسه هكي؟ معادش فيه ستر!»، وقالت أخرى: «وخيرك مليّسه وجهك هكي؟ تحسابي روحك في ليلة عرسك؟».

هدير سوق في منتصف الضحى، أو كمكان يجمع طيور اللقلاق الوافدة من الأصقاع في موسم التزاوج. الجالسات، الواقفات، وطوابير من مختلف الأعمار على أبواب الحمامات، هذه تصيح وهذه تنادي وهذه تطرق الباب وتقول هيا. هيا وهذه تريد تغيير ملابس ابنها أو ابنتها، وهذه تريد تنظيف يديها من بول ابنها الذي بال على ردائها أو رداء جارتها في الكرسي، وهذه تتعاير مع واحدة رمتها بقشور «السامينسه» والكاكوية.. عراك، صياح، ولا واحدة تتنازل للأخرى حتى من أجل اللقاء لأول مرة. تُرى أين هو المسرح القائم؟ وأين هي المشاهد الحقيقية؟ خشبة الركح، أو القاعة؟ أو من يجلس على المقاعد؟

جاء أحد الممثلين يعرض مشهده أمام المتفرجات، قالت إحداهن بصفاقة: «هذا شنو!؟ إن شاء الله هو هذا»؟ أثيرت عاصفة من الضحك «يا ريت نسمعوا بيك سمع كيف قبل وما وريتناش وجهك الشين، اللطف مشناك» !أنت فلان..اللطف!!

هذا هو المسرح الذي أنا فيه، أصوات نسائية حادة تتصاعد في ذروة السماء. لم نفرق بين المغني والممثل، والعازف على ماذا؟ وماذا يعزف؟ والراقص على أي إيقاع يؤدي حركاته؟.

وقفتُ على الركح وأوقفت أمري على آلتي الموسيقية ومضت عيوني بعيدا، هل توقف الهدير؟ انطلقت أوتاري، أكاد لا أسمعها، أنا أعلم أن أغلبهن لا يعين ما أفعل، قالت إحدى القريبات من الخشبة بصوت وبأسلوب هزيل: «وهاذي من هي؟ إيطالية؟ شي ادّير هنا»؟ أجابتها جارتها: «لا هادي ليبية» .. «ليبية؟ يعطيها كيه، وشي أدير توّا». «تضرب في الغيتارة». «تضرب في الغداره؟ يعطيها غدّاره وستّاره وصكة احماره»!

انهمرت دموعي دون أن أدري، لم يكن ضعفاً مني وإنما حسرةً وشكّاً فيما نقدم وفيما نكتب وفيما يقرأون، حياتنا العقلية كلها تجهيل، كسل، زهد، وإهمال في التفكير، المتعلم غريب بين هؤلاء في هذا الزمان، يا ليتني لم آتِ حتى لا تنطبع هذه الصورة اللعينة في مخيلتي.

– أهلا ومرحبا يا آنسة عهود، كنت أسمع روائعك الخارقة من خلال هذه السماعات، ولكن لمن كنت تعزفين؟ كمن يعزف في منزلق الرياح. لو أنك أتيت عارضة للأزياء المحلية أو مقدمة وعارضة حلي ومجوهرات وأنواع الزينة والعطور أو شارحة لبعض أكلات ووجبات غذائية أو راوية قصة فتاة فقدت مقام شرفها في لحظة ضعف وافتضح أمرها في ليلة زفافها، لساد الصمت في كل الصالة وانجذبت إليك العيون مرحبة والآذان صاغية. ولكن هذا الذي تقدمينه من عزف وكتابة، مبكر جدا، إنه يتطلب غرس روح النظام في القلب ورفعة في الذوق ويقظة في الضمير ومسارات متواصلة في التعليم، إني أقرأ بعض مقالاتك في الصحف واستمعت لمقطوعاتك الموسيقية الحالمة وهذا يدل على أنامل بارعة وعزف ساحر. أنت يا عهود لم تكُني إلا هبة لنا من الله، فليباركك فيما تسعين إليه من خير وفير وأمل زاهر، وأقول لك إن الشاطئ المرتقب ما زال بعيداً.. ولكنه ظاهر للعيان.

– إني أرتاح لهذه التعبيرات الصادقة يا سيدي، أشعر أنك مسحت دموعي وأخذت بخاطري، أشكرك على نبالة ألفاظك.. فمن أنت؟

– ناصر عبد العزيز، مذيع في الإذاعة وأقوم الآن بنقل هذا الحفل للملأ.

– وكيف أنت؟ وهل أنت راضٍ بما رأيت؟

– الضمير العام لم يستيقظ والتعليم لم ينتصر، أَلِف الناس السهولة وضاقوا بالمشقة وكرهوا الجهد واحتمال العناء، ولكن هذا ليس من طبيعة الوجود.

– هل نفقد الأمل؟ هل يتكلس القلم؟ هل تقف الكلمة الصادقة واليافعة بين فكي صاحبها؟!

– لا..لا.. ليس كل ما ترينه وتسمعينه واحد، وبستان الزهور ليست وروده من جنس واحد، فبعضه نافع فواح، ولا بد أن نكون أكبر من ظِلالنا، والصوت الصادح الرنان لن يتلاشى صداه، حتما سيأتي اللحن البديع الذي يوقظ القلب ويحرك الضمير، سيأتي اللحن الوفي الذي تجري أنت وراءه لكي تجمعي مقاماته ونوتاته، عندها يستيقظ النائم وينتبه الغافل ويخرج الهادئ من هدوئه، الأمل كبير والآفاق زاهية رحبة، ولكن...!

– كلماتك جميلة يا سيدي المذيع، تحفزني للرجاء وتستفز خطواتي إلى الأمام وتستنفر قدراتي على البذل الكثير والعطاء الكبير.. حتى نفهم الحياة التي نحياها. في أي حلم وفي أي أمل نرى ذلك!

– سيأتي، ستأخذ الرياح الهواء الساكن الموبوء، بناء المستقبل من تصميم الشباب على التطلع إلى الأفضل.

– غرّد.. غرّد أيها الطير تحت كل سماء، غرد وانشر الصوت الجميل في كل فضاء. كلماتك أطربت سمعي ورفعت همّتي وراقصت خواطري.. حتى تنبلج ضياء الشروق!

13

بقيت بطاقة الدعوة على منضدتي ثلاثة أيام لشدة فرحي بها والرفع من شأني: حضور مؤتمر عن فن التطبيب والتمريض بالحس الموسيقي في «الكويت» وهو بعنوان: «الإيحاء المتداعي والعلاج النفسي» «ترابيا». أنا وأخرى من بنغازي وطبيب واحد. أحلام الغد لا تبرح خيالي ونفسي تعج بالنشوة ونظري يحلق في السماء يتابع عبور السحب.. آهٍ يا عهود! لقد تغيرت الأدوار وانتشرت الأضواء أكثر تبين خفايا الأشياء وتحل عقد الأسرار، آه يا عهود! ماذا ستقدمين وعن ماذا تتكلمين؟. أكيد لا أود أن أكون مستمعة أسند ظهري إلى مسند المقعد فقط، عليّ أن أكون عضوا حيا مشاركا حتى أثبت وجودي ودوري الحيوي، أحس إني على مستوى أفق قادر، من يكون غيري؟ لدي الكثير من أسرار النفس البشرية وعلاقة الجسد المادي بها ولا ينقصني إلا رفعة الأسلوب في اللغة والمصطلحات العلمية، إن الذي عندي قد يكون بعضه عند الآخرين، ولكن أنا عندي، ولا بد من وقوفي أمام التجمع الكبير ليُكتب اسم ليبيا في صفحات البحوث والتقارير العلمية والطبية، لا يتوقف وجودنا مجرد وفد مستمع على ملفات الوفود التي حضرت ودونت أسماءها. لا بد أن نكون أكثر!..إذا كان هم، هم!! لِمَ لم نكن نحن نحن مثلهم؟!!..

التقيت ببعض الدكاترة الأطباء والخبراء واستعرت بعض الكتب والمجلات، التقارير الطبية المتاحة ضئيلة ولا تفي بالغرض، وطرح صورة جديدة للتشريح النفسي ليس سهلا، ولكن سلم الطموح والأمل القريب يدفعاني إلى الغد المرتقب:

طاف الشذا على كل واد وغرد الطير ينادي البعيد
فشد الآفاق يناشد قلبي وفكري يغني لعِلم مجيـد...

بدأتُ في كتابة بحثي وكلي إرادة وجدّ، ولم الْتفت لأمر يهم غير الذي أطمح إليه، حتى انتهى وأكملت خواتمه، وها قد استحلبت سبع صفحات درستها دراسة مستفيضة كما استخلصته بحثا من بطون بعض الكتب وإرشادا من أهل الدراية، وما أنتجه عقلي واستحوذ عليه فكري. كتبت الأسئلة المتوقعة أن تطرح علي وحاولت الإجابة عنها بإسهاب حتى لا يكون بحثي كلام إنشائي ومنقول، ولم أكلم عنه أحدا حتى لا يقللوا شأني ويحبطوا من همتي واندفاعي.

اقترب الموعد.. استنشقتْ خياشيم الطيارة هواء الشرق المجيد. سقطت من عيني دمعة حنان.. من أجلك أيها العزيز..من أجلك نعمل ونطوف..ومن أجلك نحيا ونموت..لم تغب عني أيها الوطن الحبيب، نظري وخيالي يتابعه يرافقه حتى واراه الأفق الخلفي.

ها قد ولى زمن الرحيـــل وطفقت خطاي تحابي الجديد
دعاء النجوم تنادي خيالي وتُسمع وجدي حلو النشيد..

وأنا فوق الغيوم – الطيارة تطوي المسافات طيا – تسلل إلى وجدي وجيب خفي، بدأت أصداؤه تتصاعد، وأحاسيسه تتداخل، وتتدمّع في صور وأفكار متداخلة. لا أدري لمَ جاءت من ذلك الأبد البعدي؟ وأنا في غنّى عنها – على الأقل في هذا الوقت الجميل «أبي، أمي، عمي».

مدرستي القديمة ومركز الشرطة – شكل خماسي تختلف أضلاعه وزواياه «ترى من أتي بك يا أبي؟ وأنت يا مدرستي ويا مركز الشرطة؟».

أما، عمي وأنا، هل يتحول الإنسان إلى جماد؟ وهو على قيد الحياة.. ربما!!

الذي أعرفه أن الإنسان لم يخلق زاهداً – قد يصاب بالزلل، إلا أنه لا يفقد مشاعره ولسانه، أمي وعمي يدفعاني دفعاً للهروب والتشرد، والمتشرد يقوم إلى كل شيء قبيح. أنا أنتي وجميلة – فماذا يعني التشرد؟ أنا لا أتعامل مع الذين لهم شرف – ولا أراهم على صواب .. فكيف أمي وعمي؟

تشعبت الأفكار والصور مع تفاوت السبل وتعاقب الأحداث، المآسي تلاحق أهلها.. حتى وهم في أبمج المواقف – أمي – أمي .. هل يرضيك .. أن ...

– آنسة آنسة .. آنسة !!.

– آ .. نعم .. نعم نعم .. يا أنستي المضيفة .. هل أنا ...

– أنا متأسفة، قطعت عنك مجري أحلامك .. ماذا تشربين؟

نزلت الكويت والشمس ترسل آخر أشعة أصيلها الذهبي، وتترك وشاحا أخاذا مغمورا في الذهب الخالص على عماراتها ومبانيها ورؤوس نخيلها. الكويت مدينة عربية في عز مجدها المادي، التاريخي والثقافي، في كل محفل إنساني تسمع صوتها ودعاها وغريد بلابلها الساحر. استقبلنا أهلها استقبالا تراثيا تليدا يليق بالضيوف وطبع في نفوسهم صورة مبجلة غير قابلة للنسيان.

شرّفنا الأمير الصباح، وافتتح المؤتمر وزير الصحة والثقافة، وفي مساء اليوم التالي توالى العلماء على خطوط مكبرات الصوت يلقون ويتلون ما توصلوا إليه في العلاج النفسي، ذلك العالم المظلم المجهول، ودور الصوت الناعم والنغم الحزين الشجي ودعاء لغة الموسيقى. كانت بحوثهم فخمة وأفكارهم عميقة، وإنهم يمتلكون دراية واسعة في هذا المضمار، علماء من آسيا وأوروبا وأفريقيا، نساء ورجال وشيوخ وطلاب من جامعات الخليج. اضطربتُ أول الأمر كأي إنسان في هذا المسرح في هذا المقام البرّاق، رفعت بصري إلى ما وراء السحاب وعمدت إلى الإيمان، قلت في نفسي: «لِمَ أدفع ذاتي إلى الهواجس؟ وإني متوكلة على الله، وإني قد أديت ما في قدرتي وما توانيت لحظة» – وإني طموحة بحث من أجل العلم.

جاء دوري.. لم أدرك خطاي، هل أنا أمشي وقدماي تلامسان الأرض؟ أم أنى أخطو في الفراغ؟ ريقي صار يهرب من فمي، ساد الصمت الصعب يترقب صوتي وأضواء الكاميرات والمصورات تخطف بصري وتكشف جوانب هامة من شخصيتي.

قدمت لمقالي أو لورقتي «إني ناشئة وأول مرة أواجه العلماء الكرام وأشد على أيديهم واحدا واحدا:» – «إني أشارك معكم بهذه الورقة المتواضعة من أجل رفع غيوم مظلمة وعُقد محيرة تستبد بالنفس البشرية المريعة المريضة وهي تتصارع مع عالم الغموض والأشباح وسبر جذور العِلل ومعرفة أسبابها ».

صفقوا لي مرتين، الأولى عند نهاية مقدمتي، والثانية بعد نهاية أجوبتي على نهاية الأسئلة من طرف بعض العلماء.

والحمد لله أنني درجت اسمي في سجل الوفود المشاركة وكتبت حرفا في سجل الخالدين!

– كدت اسقط على المنصة يا دكتور أحمد بسبب سخونة المشهد.

– طبعا..

– ما أصعب الوقوف أمام مثل هذا الملأ ومن أجل الوصول إلى هدف منشود!

– في الحقيقة أنا والزميلة سعاد زميلتنا كنا نكن لك لوما على ما ستقومين به من دوافع هي في الحقيقة في مستوى المخاطرة، لا نود أن نكون علامة أو إشارة استهزاء من قِبل أعضاء الوفود المشاركة، ولكن الحمد لله، ها أنت تمكنت من الوصول واللحاق بالقافلة وغيرت مسار الركب ونسجت صورة زاهية لا يمكن تجاوزها بل الوقوف عندها والتأمل في جزيئاتها، فأنت يا عهود خير قادم، عرفتُ الآن أنك لم تأتِ من سهل مجدب وفكر محدود وطموح قاصر، دخولك العضوي في المحتوى المباشر ووقوفك على استقامة على منصة الإلقاء عند ملتقى الأضواء يجعلني أحس بقيمتي الذاتية الفعالة بل يدفعني الفضول للتركيز على السمع والبصر، بتنا نهتم ونستفيد أكثر مما يقوله الآخرون وما تجود به بحوثهم، هذا الاندفاع المتجدد ما كان قد تولد قبل ذلك فينا، كنا في مجلس المستمع الراكن الذي هو حضور يوصف بأنه نشاط الغائب أو قراءة بلا حروف أو ظل بلا حراك!

– كن أو لا تكن، هذا هو قانون البقاء، العزيمة والصبر والمثابرة مخرج من واقعية الهامش، كل الناس خلقوا من طينة واحدة ولم يأتوا من بطون أمهاتهم علماء وتجار وصناع، فلا ندري لِمَ نرتضي بإرادة أن نجلس في سلام في مقاعد الصف الأخير ونحن بكامل قدراتنا العقلية وبصحة حواسنا!

ما كدت أرجع إلى مقعدي بين زميليْ حتى وجدت نفسي محاطة ببعض الأعضاء، خصوصا من الطلبة الشبان، وهم يبادلونني التحية والتهنئة ويشدون على يدي، وصار اسمي تنقله الألسن كما تنقل الأمواج رفيع اللحن، إنه الفرح والبِشْر، هات من الدعوات ومقابلات وزيارات عائلات كريمة وهدايا لا يحتمل حصرها وحملها من يمشي على قدميه!

۞ ۞ ۞

أعلمتني إحدى الممرضات أن في صندوق الرسائل يوجد بريد يخصني، تأملت كثيرا، تُرى من يكتب إلي؟ لم أستقبل رسالة ألبتة منذ قدومي إلى طرابلس، مِمَّن هذه الرسالة؟ لا

شيء على مظروفها إلا اسمي، إنها من كاتب قريب بداخلها ورقة محفوفة بعناية كُتب عليها: «أنا لا أرى لهذا الوجه مثيلاً!.. مُعجَب» وفي نفس الميعاد من الأسبوع الذي بعده رسالة أخرى من نفس الأصل تحتوي على: «لو أن الملائكة تنزل على الأرض وتتمثل في صورة بشر لقلت إنك ملاك... مُعجَب»!

لا شك أنها كلمات ناعمة تحرك العاطفة وتدفئ قلوب العذارى، ولكن من هو الذي يكتب إليّ مثل هذا؟ لا شك أنه مراهق يحاول أن يعبر عن كوامنه الصغيرة! توقعت المزيد منها، إلا أنها توقفت وصارت عيني تنجذب بحثاً كلما مررت بالصندوق وأتمنى أن أجد واحدة حتى وإن كانت من مراهق.. يا لعالم النفس والإنسان! تغيرت الأحاسيس، نمت بذور كانت في حالة كمون–ظهرت على السطح..وسقاها وابلاً من بعد عطشي.

ذات صباح، وأنا في مقر عملي اقترب مني شاب، سلم عليّ ونظر إلى وجهي مليا حتى أخجلني، وكنت أترقب منه «ماذا يريد!» تبسم أخيرا.. وذهب. عاود مرة أخرى بنفس الموقف والأسلوب، ينظر.. يتبسم.. ثم يقفل راجعا بسرعة دون أن يقول شيئا. تُرى من هذا؟ ولِمَ يقف أمامي ويتبسم ثم يعود دون هدف؟ هل تُراه معتوها؟ كلا! إنه شاب مرتفع القامة مليء بالصحة، متأنق، جميل المظهر تفوح منه رائحة رجولة، في عينيه طموح متواصل، مُشرق المضَحك، يميل إلى السمرة، ولكن لِمَ لا يتكلم؟!

بعد أسبوع رجع مرة أخرى، سلم عليّ بيده ونظر إلى عينيّ مليا ثم تبسم وقبل أن يلتفت إلى الوراء ويذهب بادرته قائلة:

– من أنت يا سيدي؟ لِمَ تفعل هذا كل مرة ولا تقل شيئا؟ هل أنت مريض؟! «أومأ رأسه نافيا» هل أنت الذي كتبت الرسالتين؟ «أومأ رأسه أيضاً نافيا» إذن لِمَ تتعبني وتحير أمري؟

لم يذهب مسرعا كعادته بل ذهب بخطىً وئيدة. غاب ولم يَعُد وفي قرارة نفسي إنني أحب رجوعه وانتظاره، حتى لو لم يقل شيئا، إلا أنه ينظر إليّ ثم يلاطفني بابتسامته العذبة المشرقة!

أخذ هذا الرجل معظم تفكيري، فحيث أذهب وأنظر أجده أمامي أو عالقا في خيالي وأحلامي. في إحدى الأمسيات لمحته يمشي في أحد الأسواق، حاولت التقرب منه ومحاكاته إلا أنه أسرع وذهب مع الناس وكأنه لم يرني!

عاد بعد وقت طويل، وكانت عودته بمثابة بشرى، وقف ووقفت أمامه مباشرة قائلة له:

– سيدي لِمَ تنظر إليّ هكذا ولا تكتفي؟ هل تعاني من مرض ما؟ إن الذي تفعله لم يكن حمدا لي، مجتمعي شديد الصرامة في هذا المنعطف!

– لا...

– هل تعرفني؟

– عهود..

– وما تريد مني؟ أنت تقلقني، وهذا الأسلوب ربما يسيء إليّ.

– إذا هذا يُشقيكِ أذهب ولن أعود!

– لا.. لا.. أنا لا أقصد المعنى الذي رأيته يا سيدي، ولكن ما الذي تريده مني؟! أ، تأتي هكذا وتذهب–ماذا تطلب؟ ولِمَ أنا؟

نظر في عيني هذه المرة ثم تركني وذهب. لم أجد بُدّا لفورة شجوني فبكيت لحظات دون أن أعرف لذلك سببا. صار يجول في دنيا خواطري ورغباتي، هل تراه معجبا بي؟ إلا أنه رجل يهيمن عليه الغموض، مشهد يثيرني ويحفز إرادتي في التطلع إليه أكثر، أعرف أنه لا يذهب بعيدا، الآن فقط صار يقترب مني شيئا فشيئا، إعجابي به صار يشد وجدانه ويحرك قلبه. إني أحب غموضه الساحر!

رسمته لوحة، وألفّت معزوفة تحت اسم «ابتسامة رجل غامض» تُرى متى يعود مرة أخرى وأحثه أن يكلمني أكثر؟ أحب الغموض وعبور ساحات الأسرار! يبدو أنه قوي المراس صلب القناة. تراها مقدمات أم أنه نزّاع إلى الحيرة؟ كأحاسيس جيله.. ولكن أنا عهود كيف يحيرني هذا الشاب بأسراره، كيف يأخذني بأوهامه؟ وأنا أحس بأنني طويلة القامة ومحبوبة أزهى مقام. حتى وإن لم تأتِ، أتمنى ألاّ تعود لأني لا أحب السيطرة حتى وإن جاءت من الشجون، لقد جاء أمثالكم كثيرون وطرقوا باب قلبي من عدة أوضاع.. وتوقفوا منتظرين حتى أعياهم طول الانتظار، ثم ذهبوا!

14

في صندوق بريد المستشفى وجدتُ مظروفا مسجل باسمي في داخله لقيت رسالتين، رسالة تحويل من مستشفى درنة إلى طرابلس والأخرى من أسبانيا. دعوة من كراسينيا تدعوني إلى بلادها، والسفارة الأسبانية هي التي تقوم بإجراءات السفر وتسهيله، إنها من الخارجية الأسبانية. أشكرك يا كراسينيا، أعرف إنك ذهبت إلى بلادك، تأسفت كثيرا على عدم وجودي بجانبك واصطحابك إلى المطار وتوديعك الوداع اللائق والتقدير المناسب لك، إني أعرف التاريخ وحتى اليوم الذي سافرت فيه يا كراسينيا، أعرف أنك آسفة على ترك بلادنا، كنت تعيشين في غمار أمنية وجنة موعودة، هكذا كنت تقولين أيتها العزيزة، إن الذي بيني وبينك فوق مستوى المجاملة والتكلف بل هو ذروة المشاعر الإنسانية النبيلة – يا أعز صديقة وأرفع حكيمة – والله يرعى عباده ولا يترك أحداً.

هذه كراسينيا ولكن مِن هناك، إنها ما زالت على وفائها وروابط ميثاقها، ها هي تخاطبني برسالة، ليست كممرضة، إلا أنها في مستوى وزراء، تكلف حكومتها وترسل لي رسالة دعوة من وزارة الخارجية وتطلب من سفارتها إتمام الإجراءات وتسهيل عملية السفر.. الله!! الله! إنك كبيرة يا كراسينيا. ونحن في المقابل ماذا ترين؟ وزير أو عالم مدعوٌ إلى مؤتمر علمي خارج البلاد لا يقوى على استخراج تأشيرة خروج بدون تصبب عرق وطلب واستجدَاء المساعدة وإجراء طويل لا لشيء إلا لقتل الهمة والتقليل من الشأن والحسد.. موظفون كبار ووزراء بلا صلاحيات ولا حتى اعتباراً معنوياً!!

الحمد لله، ألهذا المدى وصلتِ يا عهود؟ ما أوسع أبواب الخير وما أوفر المحاصيل- سماحة الضمير وصدق النية من ركائز الإيمان. امتدت السبل وترامت الأضواء، فأين أنتِ من هذا يا عهود؟ لا أنسى أيامي الأولى وكيف نهضتُ من بين الرميم، ثقافتي وعلمي هما اللذان رفعا همتي وعززا قدرتي على التفكير السليم وقوّما لساني على الخطاب الجميل! إنه لشأن كبير أن تأتي الرسائل والدعوات تطلبني من خارج الحدود فأي تكريم ومحاباة أيها السفير..!

لم ينقض نصف شهر حتى تهيأت الطيارة للإقلاع، عبرت البحر الأزرق، وحوّمت فوق الجبال، جبال أطلس ثم جبال الألب، جبال شاهقات تخترق قممها الغيوم، كنت أسمع عنها، والآن ها هي تحت هيكل الطيارة أراها وأحس ببرودة ثلوجها.

عبرنا حدود أسبانيا وما هي إلا لحظات حتى صارت الطيارة آخذة في النزول رويداً رويدا.

في مطار مدريد، وعند سلم المدرج، توقف زئير محركاتها، أجلت الطرف في أبواب مبنى كبير. عند نزولي استنشقت هواء جديدا، شعور آخر طاف بي كطيف الحلم القصير. ما كدت أخطو خطوات حيث يسير النازلون، قبل أن تتوقف الحافلة، حتى لمحت كراسينيا في ساحة المستقبلين تلوح بمنديلها الأبيض الخفاق، تقف مع اثنتين من الراهبات تلبسان ملابس المسوح الأبيض، على مُحياها يشرق البِشر، ابتسامة فرح ورعشة شوق، صرختْ، تأوهتْ، تأوهتُ، واحتضنتني واحتضنتها بأحاسيس لا تفسر وبدفء يسري ويصل إلى شعر الرأس ودموع الشوق تتقاطر من عيوني وعيونها.

قدمتني إلى رفيقتيها، قضينا ما بقي من اليوم في مدريد، وفي صباح اليوم التالي سافرنا إلى إشبيلية..

- زها وجه أسبانيا بقدومك يا عزيزتي عهود.

- أشكرك أيها الملاك الجميل.

- هل تذكرين؟

- أجل، لا يغيب أمر جميل بلا أثر. تجسدت ذكرياتك الكبيرة على قمم وسفوح الجبل الأخضر يا حكيمة كريسينيا، تحولت أشعارك إلى أزهار ورياض وأشجار وأحاسيسك إلى أغانٍ عذبة ونشيد، وعملك المخلص إلى صحة وعافية.

– ذكرت لك في الرسالة أن مهرجانا موسيقيا كبيرا سيعقد بعد يومين في بهو القصر الكبير في المدينة وقد غمرني البشر وقتما رأيت الكمان يرافقك، فليباركك الله يا عزيزتي عهود.

– لم تكن الكمان وحدها بل ترافقها آلة القانون، لقد تعلمته هو الآخر، وإن حظي في فهمه ومعرفة خصائصه كحظي في الكمان، وقد يكون أحيانا أعمق وأشد تأثيرا.

– هذا فتح كبير يا عهود، هل تشاركين في الحفل الكبير؟ هل تريدين أن تعزفي؟

– أجل، ومن أجلك يا كراسينيا.. يا كراسينيا أسبانيا، سأتولى أمر الماضي وسأعزف لأسبانيا أجمل الألحان.

– سأعزف على الكمان، وأعزف على القانون، ثم سأعزف بهما معا، أعزف للتاريخ بالنوتات الأصيلة والبُعد الوتري–أعزف بالنوت والمقام الشرقي.

– بهما معاً؟ بهما معاً؟!

– أجل يا حكيمة كراسينيا، إن الذي لم يأتِ بالجديد فهو لا يقدم إلا من بقايا إنتاج غيره! لابد من تقدم مستمر، لإعادة النظر في كل قديم وتخليقه من جديد، فالوجود هو النمو المتصل.

– إنه مهرجان كبير وإحساس جادّاً، قد لا يقبل الأخطاء الظاهرة..

– على يقين من هذا، ومع ذلك سأعزف بهما معا، والناس ترى وتسمع الموسيقى!.

– الذين يأتون للاستماع، نفوسهم حساسة وذوّاقة، وأهل قلوب توّاقة، يتشرّبون هزة الوتر وروعة الأداء والنغم الشجي من أسماعهم وعيونهم وأنوفهم.. فيا حبذا لو تأتي بجديد.

– تودين المشاركة معي في العزف؟

– نعم يا حكيمة كريسينيا، سأرافقك إلى أبعد مدى، وسأصعد معك، على الرغم من أنني من مقام التجربة الأولى– ولكني سأقف على استقامتي.

– يباركك الله، هذا هو الذي أتمناه كما تمنيت ورودك وحضورك ورؤيتك، الآن لا تتوقفي عن العزف وممارسة الأداء على القطع التي تودين المشاركة بها وتقديمها للسامعين، سأقف معك، ومن الآن أنا لسانك.

تجولت في إشبيلية وشاهدت بعضا من معالمها الحديثة والتاريخية ومهارة يد الإنسان وحواره ومحاكاته للطبيعة، والعقل ودعاء الفكر في بناء الجمال والفن، وما زالا ينطقان بصدق الأنبياء وبصراحة لسان الزمن القديم.

جلسنا في مقاهٍ فاخرة ونوادٍ خاصة، خصوصا النادي الذي تنتمي إليه، نادي الرسم والعزف الرفيع، نماذج رائعة من الحضارة القائمة والتراث البديع، وكأن العالم توقفت فنونه واستكمل براعته في هذا المكان. الناس هنا لا يهمها ما تأكل وتشرب بقدر اهتمامها بالفن والإبداع والجمال. تعرفت إلى شخصيات عديدة تحمل في معصمها أساور الريادة والشهرة، ومن جانبي أيضاً صرت قريبة أيضاً وأحس بأني أطول من قامتي، أتذكر محاضرتي في مدرج رفيق وفي مؤتمر الكويت. موكب الغرور يطوف بكل نفس عندما يزهو بدر لياليها. الشراهة والطمع والطموح ـ يقال ـ كلها من دوافع التطلع إلى النجومية، أحيانا يسمو وأخرى يهبط، وأنا أتمنى دائما أن أكون عالية في فكري وفي خطابي وفي تعاملي مع الناس، ولا أتمنى الهبوط.

دعاء النجوم تنادي خيالي وتُسمع وجدي حلو النشيد..

يوم الثلاثاء هو اليوم الأول لبداية المهرجان الكبير، شيء من الخوف صار يتسرب إلى قلبي ووجداني، الخوف من عدم قدرتي على الأداء الجميل كما أتمناه، حتى أُرضي المستمعين الذين يترقبون الأفضل والأكثر وقعا في سجايا قلوبهم. الخوف المعتدل ظاهرة صحية تنم عن الاهتمام وعدم الوقوع والمبالاة والاحتراس ولذلك أبقى ساهرة في غرفتي بين أنين الوتر وطرق أوتار القانون حتى أتهاوى على سريري تعباً. حاولت كراسينيا أن تعرف مني كيفية دمج النغمين: الكمان والقانون. في موجة موسيقية واحدة والعزف على الآلتين في وقت واحد، أقول لها «سأتدبر أمري فيما يخصني وأتمنى ألا أجرح شعورك، إنك تحظين بقدر كبير في نفسي، لا تعتبري ذلك أنانية مني وإنما من أجل المفاجأة لك ولي وللمستمعين» ... يا إلهي أعطني القوة والقدرة على الثبات حتى أتمكن من وضع قدميّ على عتبة جمال الأداء وتقدير الناس لي.

الناس في هرج ومرج وفي حركة لا تستقر بين حدائق القصر الكبير وكفتيرياته ومقاهيه. وجوه متطلعة ونفوس وثابة إلى ما يَأتي به الساعات. دخلنا المدّرج، بل إنه بهو مترامي الأبعاد

يسطع نورا ويزهو بكل ما وهبته الحضارة من شئون تخصه. توافد الناس.. أُسَر مالكة، أمراء، موسيقيون، رسامون، كتّاب وشعراء، تشد وثاقهم روابط الشهرة والإعلام، ومشاهد تهز الفؤاد وتأسر الخيال. يا الله!! يا الله!! إني أناجيك وأصلي، لا تخيب أملي، هب لي العزيمة حتى أتماسك ولا تخدعني المظاهر ولا تبهرني الأضواء الخداعة.

قطع من سينفونيات بيتهوفن وباخ وشومان تتجاوب بها جدران البهو. أُعلنت الأسماء المشاركة وكانت عديدة وكبرى ومن بلدان كثيرة، سمعت اسمي «ليبية ناشئة في مقام الكمان» ومقام أدائي في النصف من اليوم الثاني للمهرجان. إنه وقت كافٍ أقدر فيه حسابي وأعي ما يجري وما يقام وكيف تُؤدى الأدوار الحية.

توالت الأدوار وتبادل العازفون على ميكروفون المسرح، اضطربت الأنامل وارتعشت الأوتار وغابت العيون تسبح في بحور الخيال بين يقظة اليوم وغفوة الأمس، تغير لون الأضواء وانخفضت حدتها وانطلق السحر العجيب والشعر الملائكي يدغدغان المشاعر ويحركان نبض الذكريات ويعززان دعاء الوجدان، تسابيح صاعدة ونداء ينساب في الأسماع ويسري مع كل سبيل. وراح المستمعون في غفوة أصحاب الكهف، التسابيح تتوالى والأنامل ترتعش والأوتار تئن وتقول. كانت الحكيمة كرايسينا من بين العازفات والعازفين، تلك التي صفق لها المستمعون عدة مرات متوالية. في نظري أنها توارت بجسدها ولم يبق منها إلا الغيتار والقوس والباقي تبدد مع النغم الشجي وانسابت لحنا في آذان السامعين!

قبل البدء وُزع علينا كتيب لكل منا فيه أسماء المشاركين وجنسياتهم وأسماء وعناوين القطع الموسيقية التي سيقدمها العازف ومضمون كل قطعة، حتى يكون السامع يدرك ويعرف ما تعنيه المعزوفة ودورها الفني والاجتماعي أو حتى التاريخي، وكان بالنسبة لي أمراً جيداً، كانت معرفتي تتحدد على عزف القطعة فقط، ولكن ها هو الآن يتجاوز الحد إلى ما تعنيه المعزوفة، أنا لا أعرف الأسبانية لهذا أحتاج إلى مترجم يروي قصة قطعتي. لم تنقضِ ساعة ونصف، أي عند وقفة الاستراحة، حتى كان في مقابلتي أربعة مترجمين، اخترت مترجمة مغربية جميلة ذات إحساس شاعر ولسان قويم دافئ، قالت «إني أعرف كيف أطلق الكلمة إلى السامع وهي ما زالت في المخاض الأخير في جود النغم»، بعد نهاية الحفل ذهبنا معا إلى الفندق، وقبل حلول الفجر كنت قد أنهيت تراجم قصص قطعي، ودور الموسيقى في إظهار التلاحم الجزئي في تكوين الهالة الضوئية للمشهد الحركي للصورة وفي تعبيرها اللفظي.

ظهر الصبح سريعا، لم آخذ كفايتي من النوم، أحاول أن أسد كل فراغ يبدو لي حتى لا أقع في شَرَك الضعف وسقوطي، أنا خائفة لأني لا أريد السقوط، طموحة أريد النجاح، النجاح الذي يكسبه الآخرون، إن الآخرين مثلي لا ينقصني عنهم ذرة، العبرة في العزيمة والصبر فقط، والنجاح حصيلة العمل الجيد، لقد حفظت كل شيء عن ظهر قلب مما سأقدمه غدا.

الخامسة والنصف مساءً من يوم الأربعاء، بدأ أول المشاركين عزفه على آلة الأرغون ثم بعده الثاني على آلة البُزق. يبدو أن العزف لم يرقْ كثيرا من المستمعين فالوشوشة والهمسات تنغص الصمت الناشئ، كراسينيا جالسة بجانبي تشد أزري وتشجعني وتقول لي:

– إن الأمر بسيط جدا، اللحظات الأولى فقط، ثم تتساوى عندك المضامين، المهم من ذلك لا تخافي ولا تفقدي الهدف، أنت عازفة ماهرة لا مثيل لك.

– أشكرك على نبلك النادر واهتمامك بي، إني لا أنسى.

جاء مقدم المشاركين، شاب ذو شعر ذهبي، بطوله الفارع ووجهه الجميل الضاحك، وقال:

– أيها المستمعون الكرام، إنها لمفاجأة حقا أن تأتي أنثى من وراء البحار عازفة على العزف المنفرد على آلتيْ القانون والكمان، أول مرة أسمع عن عربية تشارك الموسيقيين في مهرجان كبير، بل إنها ليبية، أنا أكاد أنبهر من هذه المفاجأة السارة.. فلتتقدم الآنسة الحسناء عهود مشكورة إلى ملتقى الأضواء.. «سَلَمْ أَلَيكُمْ!».

15

عصفت موجة حادة من التصفيق وتحركت الأرجل وتنحنح بعضهم وتسمرت العيون على وجهها الأسطوري.

- «أيها المستمعون الكرام، إني أحييكم أجمل تحية وأوفر شكر، وإني أحيي السيد المقدم على الإطراء وكيفية تقديمي لجمهوره الكريم الذي صفق بإخلاص وتمنى لي النجاح، فأهلا وسهلا بكم.. الأخت المترجمة آمل أن تحوّلي تحياتي وأماني لهم بأمانة، كما آمل أيضاً أن لا تغفلي عن همسة نغم أو رعشة وتر أو أنّـهَ وقف عن الترجمة، فمقطوعتي الأولى «عازف في الليل» تعزف على آلة القانون».

جلست عهود على كرسي ووضعت الآلة الموسيقية على مشدّ رمت أناملها على الأوتار، نظرت إلى أعلى شبه باسمة وكأن عيونها تستوحي وعدا أو هاتفا من بعيد، امتدت أناملها ثم انعكفت، أنَّ الوتر السابع منفردا مستنجدا ثم الوتر الثامن وهو مستغرق في الظلام ويأتي الحوار بينهما لحظات، ثم يأتي الحادي عشر ذو الصوت الرخيم، جبار الظلام، ويطرق بسوطه الملتهب، وناحت الأوتار تئِنّ وترتجي، وغرد الطير ينادي مَن نعسْ وتحالفت الأحاسيس الرقيقة مع دعاء الأنغام فهام كل حي على هواه، أتراه حلما طائفا أم أنها يقظة عابرة وراء ظل الزمن يمد خطاه منهمكا في عزفه والطريق المتعرجة لا تنتهي؟!

من أنت[1] أيها العزف الشادي؟! ولِمَ تمد خطاك؟!
الطريق صعبة والليل من حولك ساجي!
يا عازفا في الليل تمهل، فإن زمن الشدو لا يرجو جفاك..
هات ما عندك من حسن الكلام... وانشر جميل النغم في سمع الغفاة.

❁ ❁ ❁

أراكم وكأنكم نمتم أيها السادة والسيدات، ها هي عهود قد عادت من طريقها الصعب وليلها الساجي كما تقول في قصة عازف الليل.. والآن أراها تستعد لعزف مقطوعتها الأخرى «بكاء الهديل المهجور» أراها وقد تقلدت آلة الكمان فإلى هناك، مع الأوتار، ومع الأوتار تتجدد الحياة وتزدهر إذا ولّدت من صلبها الفرسان وروّاد الزمان.

وقفتْ وقفة مسرحي وأسبلت الكمان على ذراعها بحيث يلامس خفقان قلبها ويتحسس نعومة جيدها، تبسمت قليلا، نظرت إلى أعلى ثم أنزلت أوتار القوس على منظومة أوتار الكمان، ناحت الأوتار في مصب انسيابي عزيز، ثم يأخذ في الصعود التدريجي فتظهر غابة بكر ما زالت قطرات من الندى تداعب أطرافها، يأخذ اللحن في الطواف ويملأ الفضاء الناشئ بالشدو واللحن البديع، تجاوبت الأصداء وانتفض الوكر الحزين هناك في أعالي الجبل، في ذلك الشق المهيب. لِمَ أنت واقف هكذا وتبدو كأنك تسبح في حزن عميق؟ هل أنت مطرود أم محكوم عليك بالسجن؟ أنا الهديل، الهديل المهجور، أيها اللّحّان العجيب لقد هجرتْني فأنسلت من جنبي وذهبتْ إلى غيري عندما رأت وأحست بدفئي لا يغطي حاجتها، طال بي العمر وهَواني الكبر!

– وماذا تفعل الآن؟

– أقف هكذا، وقد زهدتُ في كل شيء.. أنادي.. وأنادي ولا شيء يأتي إلا الصمت القاتل أو الرجع الحزين الذي تأتي به كل أرجاء وادي الصقيع.

– إلى متى يصاحبك البكاء لِمَ لا تطير وتبحث عن عائد جديد؟ بيتك كبير ولسانك مقتدر ومُحياك جميل!

---

(1) المؤلف

– أستمسكُ بالعهد، ومنذ شبابي ربطتُ في عنقي سوار الوفاء، الآن انتهى كل شيء أيها اللحّان، أيها اللحان الوفي يمكنك أن تعود إلى من حيث أتيت.

صرخ بأعلى صوته مناديا ثم ضرب قلبه بمنقاره الحاد، فغار الدم من بين ريشه منسكبا من أعلى الجبل إلى أسفل، ثم يأخذ مجراه حتى ملتقى النهر حيث يأخذه معه بلونه الأحمر ليسقي الزرع والشجر والقلوب العطشى وينثر مع هبوب الأنسام الحَبّ والحُبّ والعهد والوفاء. من هو ذلك الذي يتأمله عن كثب؟ لقد كان وكرا دافئا يجول فيه الضياء ويترنم فيه لحن الحياة، ها هو الآن في طريق الهجر والسفر الذي لا عودة منه، لقد تلاشى الأثر وتبدد هيكل الهديل وتحول ريشه الأبيض إلى أمواج حية من النغم الساحر تتجمع في دوائر زاهية ثم تأخذ في انسياب عفوي في خيوط جذابة وتذوب لحنا يافعا في أوتار كمان عهود، لحنا يمتلك من الروعة وحسن الأداء ما يسكر الصاحي ويُبكي صاحب القلب الكبير.

«الرحيل المفاجئ» هي القطعة الموسيقية الثالثة والأخيرة التي ستؤديها الآنسة عهود، وقد رأت في هذه القطعة أو هذه القصة أن تلعب بآلتيْ الكمان والقانون في آن واحد في ظروف هي أدرى بإدارتها وأدائها، أحدها تسجيل والآخر حي، وقد قام فني التركيب وتعديل الصوت بذلك العمل حسب توجيهاتها، والآنسة الآن على عتبة الدخول.. فإلى هناك..

الله!! الله!! هاهي إنها بدر سماوي متوهج يظهر علينا من بين فجاج الجبال الغيورة إنها بلباسها الوطني التقليدي، ما أجمل وما أروع هذا! إنها خلق الله، أيتها القصيدة الفريدة ابتدعتِ وجئتِ من أي فحل من فحول الشعراء؟ ما أجمل هذا اللباس وما أحسن من يرتديه! تصفيق الجمهور يكاد يبدد صوت الميكروفون، وها هي فينوس واقفة تبتسم ولا تكف عن التحية برحابة المشهد.

وفي لحظة قد لا تُحسب انطلق اللحن من آلة القانون، تنقّلت التقاسيم تتابع تموّجات رنين الزمان بين حركتي الصعود والنزول النشاط والخمول، إيعاز العقل وومضة الفكر واليد القوية الماهرة، هكذا نستوحي من هذا الرنين الخاطف.

انخفض رنين القانون حتى كاد يتلاشى من الأسماع، إلا أن من ورائه صدحت أوتار الكمان الذي هو بين يدي عهود، وانطلقت سامية تحوم وتموج كموج البحر في فصل الجمال،

يظهر صوت الموج فيرجعه غريد النوارس، أمواج وأمواج تتداعى ويأتي الرجع من دعاء النوارس.. تُرى من يفعل ويُبدع هذا؟ إلا من ذكي موهوب. تبقى الصورة حية بين السمع والبصر ثم تُسمع جَلَبة وصياح، تختلط أصوات النساء بأصوات الرجال، وتأتي من بين الوحي موسيقى من آلة «الكمان البربري»، خُطىً وإيقاعات وركلات بالأرجل في خفة الشباب، لا شك في أنه رقص فلكلوري في الفضاء الواسع، أجل رقص فلكلوري بين الجنسين في تودد كبير يقام بصيغة خاصة وبإيقاع ونغمة «التروبادور». يستمر الفلكلور كما يظهر من اللحن زاهيا منتشيا، يقترب القانون بأوتاره الشجية ويتلاشى الكمان، ولكن بدل اللحن الرفيع تأتي وهلة توقف تملّها الأسماع ويحتار من وقعها الانسجام، تحل فرقعات حادة تشبه عيارات مدافع تهز الأرض وتضطرب أجواء السلام الذي كان يجلل آفاق الفلكلور، تشابكت البنادق وترامت القنابل على كل البقاع. صرخت العذارى وولولت النساء وسقط الرجال، لِمَ هذا؟ إنه ناعِ قذر ونذير شؤم، أنا لم أعِ ما يجري! قال قائل من قوله: لِمَ ولمن هذه الحرب؟ فردّ عليه قائل آخر: لم تأتِ من الخارج.. إنه واحد من صميم الشعب صنع وأشعل هذه الحرب ولكن لم يبررها عاقل وأجمع عليها السفهاء، هكذا تأتي المصائب.. وينجر إلى لهيبها الجميع!

هفهف الزمان بجناحيه، تعانقت أوتار القانون والكمان تُجسّد وتصور ما وقع، ألحان ذات انسجام بديع وتآلف رفيع يدل على قدرة كبيرة وحس خارق وبراعة نادرة، إنها لا تنسى وخزة في وتر أو همسة أو رعشة من أناملها، فكل مجرى ينطلق منسابا إلى المصب المقصود، فجأة تحل فرقعة وانفجار شديدين من وتر ضخم في القانون وتأتي بعده من وتر الكمان صرخة الموت: آي، آي.. كراسينيا، كراسينيا.. لقد توقف العمر يا كراسينيا، توقف في حرب ليس مؤمنا بها، حرب كافرة بين الأسبان أنفسهم من أجل الجبناء!

- **روسيلوس.. روسيلو.. أين أنت؟ جثت متناثرة وآهات ضامرة تودع الحياة!**
- **لقد كنت لي جنة مزهرة وربوة عالية ومعين متواصل يغذي نشوة حياتي وأملي الموعود!**
- **هل أصابك مكروها يا حبيبي؟ تعال يا روسيلو.. هيا**

انهض وصلي للرب، انهض لأهبك دمي، لأعطيك قلبي، أعطيك ما عندي حتى لا تذهب وتتركني في هذا الفراغ البارد الموحش. إذا ذهبت يا روسيلو فإني سأبقى وحيدة أتجرع آلام الذكريات، فأنت حي عندي.. لا تذهب.. أرجوك لا تظلم الحب ولا تقسو على عقدة البقاء والوجود، روسيلو ما عندي غيرك يمثل نبض أيامي ويعزي عمري.

تصعد الأنغام ويصعد معها الحنين وتنبسط الروعة على الحسن الدفين وتتلاشى أنفاس المستمعين في غمار القصة والوحي الحزين، وفجأة تأتي صرخة نسائية مدوية من بين الصفوف الأمامية.. إنها كراسينيا الحبيبة تصرخ وتقول «إنها قصتي.. إنها قصتي، قصة الوداع الأخير. كفى.. كفى يا عهود، إنني على حافة الوتر الدفين، لا تزيدي في وجع فؤادي»!

تجمع من حولها أصدقاؤها والجالسون بقربها، هذه الصرخات أثارت المستمعين وأسقطت شيئا من الحيرة!

تواصل العزف وترامت معاني القصة، قامت كراسينيا من بين الواقفين دامعة العين ووقفت بجانب عهود تواجه المستمعين في مقام شاعر:

أمواج من عالم الغيب
تتكسر على شواطئ أملي
ودعاء كالهزار يغني، يصدر من هذا الفلج الأفقي
من هذا المنار العالي الوهاج
لا يتراجع ما خطه قلمك على صفحات صدري
ما قلته لي ما زال محفوراً على جبين عمري
يا أيها الراحل في الضحى القريب
رحلت وما كنت تود الرحيل
إني لا أنسى أيها العازف في عالم ذكرياتي
ما زلت ضياءً تموج في ظلمات عمري

أراك حيا يافعا تخطو على أجمل جزيرة
بين ريشة السحرِ وغيتار الأمل
هيا، هيا يا ابن الآفاق شد بيدي
إنه لقاؤنا الأبدي
إنه مجلس حضورك
وتاريخ أفكاري!

عاصفة من التصفيق عندما ألقت عهود الكمان ووضعته على منضدة، يدل على نهاية الوعد وخلاصة الشريط الأخير.

قصص تأخذ باللب وتطوف بنا على أجنحة الخيال، تُرى كيف صوّرتها الأوتار وغذتها الألوان ودبَّجها أدق بيان، إنها أوتار كمان وقانون عهود، جاء كثير منهم يتفحصون أوتار الكمان عسى أن يجدوا أمرا غريبا أو أنامل من فحول سحر الجن تتحرك في زواياه وفجواته.

وآخر الأمر، لا نجد الكلمات المناسبة لتوفي ما قدَّمْتِه لنا هذه الآنسة الموهوبة.

تقدم رئيس بلدية اشبيلية يخطو نحوي باسماً بخطىً وئيدة تدل على الاقتناع والإعجاب، ولامس يدي مُسَلِّما وشاكرا ومهنئا، وقال وصوته رخيم صادي النبرات:

– «لا يتوقف جمال الله في بدائع خلقه، فكل يوم تعطينا السماء وترينا نجما جديدا يومض بحدة في سماء النجوم، عهود أنت النجم الذي ظهر اليوم في سمائنا من سماء الشرق. النغم البديع لا يأتي إلا من جميل قدير، من خلال أوتارك ناغمتِ صوت الإنسان وحاكيتِ صوت الطير وماثلتِ الأشياء والطبيعة، وهذا بطبيعة الحال، لا يأتي إلا من نابغ متفوق، اللحن والموسيقى هبة من الله، إنكِ شمس صاعدة، العملة الحقيقية ليست متداولة على مدى شاسع، فأنتِ من الفصيل النادر، في عينيك تصميم المهاجر الأبدي، لا أقول أنك لست من أهل الصدارة بل أنت مثل هؤلاء الذين جاءوا فجأة فومضوا في سماء الشرق لحظات.. صنعوا الجمال ثم ذهبوا، فأرجو أن تبقي عمرا طويلا تنسجين هذا الحس الموسيقي الرفيع وتكتبين التاريخ بهذا الشعور النابض. إنه تاريخ الإنسان الكبير.»

– أشكرك يا سيدي العميد، أشكرك، لقد دبجتني بهذه الكلمات السامية، أشكرك.. أنت فيض من الكلمات الرائعة والأفكار المنعشة، وإني أوجه من خلال مقامك العالي تحية وتقديرا إلى الشعب الأسباني العزيز، إنه يحب العرب، وإنه جار والجار عضد الجار، وإن بيننا تاريخ طويل حافل بالنمو الإنساني والمد الحضاري.

– لقد لمستِ جانبا مهما في التاريخ الأسباني المعاصر، والآن نعيش رخاءً ديمقراطيا وماديا، لقد تنفسنا الصُّعَداء، ذهبت الدكتاتورية البغيضة وذهب معها الفقر والجهل إلى غير رجعة. يا عهود بلغي تحياتي الحارة وأماني السعيدة إلى الشعب الليبي الصديق.. ولكن بأوتار الكمان!

– أجل يا سيدي.. بالكمان!

طبعا، لم أكن نجمة المهرجان كما ظهر أخيرا، ولا حتى في المرتبة العاشرة، وإنما خُصصت لي في السجل الكبير صفحات سجلت عليها كلمات مجسدة كُتبت بماء الذهب، وكَتبتُ بيدي سطرا يخدم سطور العمر ومعبر الخالدين!

المهم، أتيت وأديت بمهارة وإخلاص، قدموا لي شهادة شكر وتقدير وجائزة ثمينة. وجائزة المهرجان عبارة عن تمثال من الرخام لغادة حسناء تعزف على الكمان، وأهدوا لي أيضاً رسمة كبيرة بالريشة على لوحة وأنا أعزف.

حالا ما تحول المهرجان في التاريخ وبات ومضة من ومضات الماضي، ولم يبق من وميض الأثر.. إلا الجمال.

رافقت كراسينيا حتى مقبرة «سانتو ماريوس» حيث يرقد روسيلو، وقفت معها تقديرا لها ومواساتها في عزيز قلبها الذي رحل عنها إلى الأبد، بكتْ وبكيتُ معها وأخذتها بين ذراعي واحتضنتها لحظات حتى أحست بالطمأنينة والدفء والحنان إلى قلبها المطعون، جذبتني إلى صدرها بالمثل وداعبت شعري وعيونها غارقة في الدموع!

هذه المرة الثانية أشاهد الصحفيين عن كَتَب وأتطلع إليهم وأتحاور معهم وجها لوجه. كان الصحفي في علمي وسيلة محتكرة على ساحة أهل الحكم والسياسة، ولكن الأمر يختلف،

خصوصا في أوروبا، وهذه الخبرات الجديدة توصلت إليها بفضل السفر وتعدد المحطات. الصحفي لديهم يبحث عن الجديد في الإبداع، في العبقرية، في الغريب، في الينبوع في كل مجالات الحياة، هذا هو الذي أصبح يسيطر على قلم ومقال الإعلام.

هذا المؤتمر الصحفي حافل بالصحفيين وأهل الإعلام ينقلون إلى ديارهم وأهاليهم كل شهقة إعجاب ونبس شفة ويحاولون أن يحيطوا بكل علم يدور في هذا المهرجان، فأنا شخصيا لولا جهلي باللغة لما تمكنت من إرجاع أنفاسي من السائل والسؤال من الباحث عن الكلمة وحب المقال في دروب العبارة ومحطات الأفكار.

– مرحباً بك يا آنسة عهود..

– مرحبا بك أنت أيضاً..

– أنا صحفية من برشلونة – أجيد العربية – أنا لم أحضر مقاماتك الممتعة في الموسيقى إلا أنهم أخبروني – أشكرك على هذا الرونق، وهذا الإبداع المتوسع – آنستي أنا مثلك في العمر، وفي أشياء أخرى كثيرة – وشغوفة بالعمل في الصحافة .. وأيضاً في دراسة التاريخ – أنا أحب أن أنصف الذي قدّم لي وقدرني – أنا معجبة بالعرب والمسلمين، وما قدّموه – وما تركوه لنا من الفنون الجميلة والألوان الزاهية والآثار والبقايا الرائعة، التي لا يتوقف جودها وزهوها مع مرور الأيام وتعاقب السنين، العرب المسلمين أفلحوا وبنوا الجمال إلى أبعد مداه في ذلك الزمان، إنها أجمل الأحقاب وأهدأ المراحل من حيث الأمن والعدل والعلم والاقتصاد والسلم والفن الجمالي على كل السطور والأوتار والريشة والقلم. الإسلام هالة متوهجة لحضارة قائمة ومتحركة لا يعتريها عامل الكلل ولا توقفها عوارض النائبات فهيا – هيا أنهضوا وبقوة الشد القديم – حتى نتعاون معاً على إنقاذ البشرية من صدمة الربكة والحيرة والضلال. أكثر شعوب الأرض ضدكم – لأن الناس تعيش في ظلام الوطاويط – وأنتم تمتلكون الشعلة والمفسدون في الأرض يكرهون الضياء.

16

إنها فرنسية تلك التي تجاور غرفتي في الفندق، صحفية اسمها جولييت قريبة من عمري، جميلة نشطة جريئة تتوهج الثقافة الصحفية فيها توهج النجم الساطع. ربط بيني وبينها رباط العلم وجودة الأداء والثقافة، عناصر تمدنا بالثقة والصدق ومحبة الإنسان، كراسينيا هي الوسيط الأدبي والأخلاقي.

في إحدى الجلسات الحرة قالت جولييت وهي تتطلع إلى وجهي بتأمل: «عندما تقف عيناي على محياك يا عهود يخالجني إشراق نفسي مفاجئ وتمتد من أمامي سُبُلا لا يحددها الأفق السماوي، فمن أين هذا النسيج الرباني؟! عهود كراسينيا أتمنى أن تكونا ضيفتي في باريس وأرجو ألاّ تمانعان دعوتي».

كان القطار يزفر أنفاسه المتعبة الطويلة، عندما لاحت لنا مشارف باريس، وكان مساء، وقد بلغ بنا التعب أشدّه، فبيت عائلة جولييت هو الأنسب لوجبة العشاء والمبيت، فالعائلة عائلة عز والبيت بيت كرم.. وسيماهم على وجوههم.

في صباح اليوم التالي من وجودنا في باريس قضينا معظم ساعات النهار تجوالا بين معالم باريس: جامعة السوربون، قصور التويلليري، نوتردام، شارع الإيليزي، برج ايفال، ساكروكور، حديقة الاكسنبورغ، رحلة عبر نهر السين. تغذينا سندوتشات على قارعة الطريق

وتعشينا في أحد مطاعم الحي اللاتيني في سرداب على أضواء الشموع. انتهى بنا النهار إلى سهرة في مسرحية كبيرة في أوبرا باريس.

الحياة في باريس أو في فرنسا وأسبانيا لا تمثل حركة بشر بين طالع ونازل فقط بقدر ما هي صفحات سجل كبير متحرك ومدوّن ودروب زاخرة بالعطاء والنور، فكل خطوة تخطوها أو وقفة تقفها يجبرك القلم على أن تتناوله وترصد ما أوقفك، كل شيء حي أو جماد يتحرك ويثمر ويعطي جودا وفيرا، التاريخ بما فيه من أبطال ومعارك ومواقف ومعالم ومخترعات ولوحات وكتّاب وشعراء وتماثيل، كلها تتحرك وتعمل اليوم وتجود بالخيرات إلى خزائن الدولة من أجل الحاضر، فلا شيء يذهب أو يكون من أجل لا شيء والمستقبل هدف الحاضر، والحاضر خميرة الماضي!

على مسافة 25 كم جنوب باريس يظهر لك من خلال فجوات الغابات ومن فوق الهضاب مجد كبير وتراث متين، إنها مآثر لويس السادس عشر، لقد ذهب هو وبقي القصر العظيم والحدائق الرائعة الغناء، إنه قصر فرساي، لقد ذهلتُ عندما رأيت هذا الجمال، إنه حبوة وهبة تغازلان باريس وتقللان من كبريائها، إنه قصر فرساي.. أيها الفرنسيون ما أجمل هذا وما أروع ما أرى، كان من المفروض أن تقام فيه حفلة عزف وأعزف فيه معزوفة القصر الخالد، هذا القصر العظيم الذي بناه أحد ملوككم وفي بلادكم، إلا أنه ليس كله لكم فنحن الليبيين لنا فيه شطرا أساسيا في معدات بنائه وأساس شد جدرانه، إن ستَّ مائة عمود أثري جُلبت من مدينتي لبدة وصبراته الأثريتين، إن الشمس لا تخفي عهدها بها، والنهار والبحر لا ينسيان ذلك، وطلاء القصر لا يحجبها عن الصدق ومنطق التاريخ، أصحاب الدراية يذكرون ذلك ومن بينهم «مس توللي» التي قضت عشر سنوات في بلاط طرابلس إبّان الحكم القره مانلي في عهد يوسف باشا، إنه جمال في عيونكم وجمال في عيون أهل الحس الفني والذوق.. وكذلك في عيوننا نحن، إنه تراث في بلادكم وهبة منا إليكم حتى وإن كان ذلك من وراء غفلة التاريخ القديم!

الأمم تتسابق وتتنافس والدول مصالح والأبواب مشرّعة لا يفتح مصارعها إلا الأقوياء، والويل للضعيف المهان تضيع مقدراته من بين يديه ولا يدري ما هي! ولِمَ وإلى أين ذهبت؟!..

أكرمت جولييت وعائلتها وفادتنا ومهدت لنا سبيل الراحة وقدمت لنا العطايا والهدايا.

رحلتنا إلى فرنسا كبيرة وعميقة الأثر في نفسي، لقد رأيت كثيرا ما كنت قد سمعته. فعلا الشرق شرق والغرب غرب، وكثيرا مما في الغرب لا يمكن أن يكون أو يسود في الشرق.. «إنما الأمم الأخلاق ما بقيت، فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا» النظام والأخلاق هما منسأة العون والثبات على الدرب الطويل.

– وصلنا.. ها نحن مرة أخرى في أسبانيا يا عزيزتي عهود، وقد تمادت بنا مسافتي الرحلات والفكر، فمن تنادين؟ ومن تذكرين؟ كأني أسمعك تدندنين.

– نعم هذه غرناطة، مدينة كبيرة يغلفها التاريخ المجيد، وهذا جامعها العظيم يؤمه السائحون من كل حدب وصوب، ينقلب بصري وكأني أرى المصلين ودعاة الوجوب أمامي يتحركون. هذه غرناطة وأسواقها الكبيرة وفنونها الخالدة، هذه غرناطة منارة العلم ومركز الحلم الإسلامي ومنطلق الفكر الحي إلى أوروبا، وجود كان يعج بالحركة والنشاط زاخرا بالقوة والثبات عامرا بالبناء، كان ذلك قبل ثلاث مائة عام من زماننا، ولكن البقاء لله وحده، وكأني أنظر إلى الكاتب وهو يزيح يده على ما كتب على الجدار المتين: [لا غالب إلا الله].

– ماذا تقولين يا عهود؟

– إني أكلم نفسي يا حكيمة كراسينيا، ألا ترين هذه الدمعة الكبيرة كيف تدحرجت وسقطت على خَدِّيّ؟ يا ويل أهل التاريخ من التاريخ والتاريخ لا يضم إلى جوفه العامر الحواة والجبناء ومحترفي الزور والكذب.

– أنت مَنْ..؟

– عجيبة.. أنسيتِ من أنا؟ أنا ظل هائم في سراب وشروق العمر لم يلد بعد، أنا في عصر ليس كعصرك. أنا في عصر لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، وقلمي بكت عليه الهمم. المَلِك الذي ملك وامتلك لا يبيع مُلْكَه، خط باهت من التاريخ الغامض ما زال يسري، يصعد ويهبط، لا يفسر بقناعة لأن المَعْني لم يستيقظ من نومه بعد، حتى.. أو وكيف سيكون عندما تصدمه لوعة المفاجأة وخطورة المشهد؟ ولكن، ربما لذة النومة الطويلة تجعله لا يشعر ولا يلوم نفسه، وتقنعه فسحة السلامة وهدوء المقام وحصوله على اللقمة المستساغة من أي متصدق.

– هذه حكمة التاريخ، البقاء لله وحده. لا بد أن نقف وقفة تأمل عميقة، لست أنتِ فقط التي تعيش بتلك النظرة، ونحن على قمم الجبل الأخضر العظيم، لم نترك مسافة مشي إلا وتصادفنا بوابة أو ممر يفضي إلى مدينة، أو تصادفنا غانية أو آنية أو مِسلة تناشد السماء أو عمدان ضخمة تشد جدران معابد وقصور ملوك، كلها ما زالت تعج بالحياة وتنادي وتصدح بالغناء وحكمة حضارة أهل الإغريق، أظنك لن تنسِ يا عهود، وكذلك لبدة وصبراته وأويا، معالم كلها تومض بضياء شموس زمان، زمان تولى بعيدا عن زماننا، شمس قرطاجنة وروما القديمة أين هما الآن؟ حضارات سادت ثم بادت، لقد ذهبوا جميعا ولم تبق إلا الكلمة والإزميل والريشة يشده حاجب الزمن، إنه سر الخالق في مجريات الدهر وخطوة الإنسان في مرحلتي النشوء والارتقاء أو فتور العزيمة وخمور الهمة – إنها حيرة النفس وعلة الجسد يا عهود.

بداية الصعود رجل وكلمة، وبداية النزول أيضاً رجل وكلمة، فماذا يكون في جوف هذه؟ وماذا فقدتُ في هذه؟ إنه السر الإلهي.

تخلت الشمس عن الشروق، وتوغّلت صاعدة، وكنتُ وقتئذ على وشك نهاية معزوفة الليل، رنّ هاتف غرفتي، أرخيتُ الشد على الأوتار – تمهلتُ قليلاً .. ثم ... .

– نعم ... نعم ..

– أنا يا آنسة عهود .. ضيف عند هاتفك – معجب يريد مقابلتك إذا أمكن لك ذلك:

– بكل سرور يا سيدي– لا أزيد عن نصف ساعة حتى أكون عندك في صالون الفندق.

غيرت من شئون نفسي واستبدلت ملابسي، ونزلت بمهل وثقة، هناك لمحت رجلاً طويل القامة، رشيق جميل الوجه، منطلق السريرة، ما كاد يراني نازلة، ومقبلة نحوه حتى تبسم قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم.. السلام عليك يا عهود».

– وعليك السلام يا سيدي .. تفضل..

– هذا مقعدك.. أتمنى أن تكوني من أهل الحوار الطويل واللسان البديع .. أنا من الذين شاهدوك واستمعوا إليك يا صفاء حتى النهاية.

– هذا من حسّن اهتمامك وجود فضلك – أشكرك.

– أريد محاورتك .. وأنتِ من أهل الفضل والكرم.

– بكل سرور يا سيدي، إلا أنني لا أجيد الأسبانية.

– أنا أسباني وأجيد العربية.

– أهكذا !!؟ ها ها ها .. هذا جميل.

– أول مرة أشاهد عربية من شمال أفريقيا تعزف بإتقان وبهذه الروح النادرة. أعجبت كثيراً بما قدّمت معزوفاتك رائعة، وإنك تستحقين هذه الروعة – متطلعة وتريدين العلو – العزيمة والحزم يصدران من بريق عينيك – فهذه نقطة بداية الخط.

– نعم يا سيدي – هكذا تعلمتُ السير .. خطوات نجاح اليوم .. لا تعبر في نفسي تواصل إلى نجاح الغد– فكل وقت له خطواته ونجاحاته – كالشهادات العلمية – لا تعتبر ذات فاعلية وقيمة علمية، إذا لم يواكب تحصيلها وتأثيرها، في كل ساعة، وكل يوم، وكل سنة– فكل زمان بعلمه وثقافته وتحصيله، إذن العبرة ليست في الشهادة، بقدر مردودها المتواصل مع الإيداع الآني، وما يظهر من جديد.

– كأنك تتكلمين على لساني – أنا عبدالمؤمن – أسباني مسلم أوحّد الله وآمن بالرسل والأنبياء جميعاً، وكل ما جاء في الكتاب الكريم

– تبارك الله وما شاء الله.

– عندما رأيتك وأنتِ تعزفين بلباسك التقليدي الوطني، أوحيت إليّ مشاهد عجيبة وتراءت لي أهماماً وأطيافاً من الضياء الحالمة، نقلتني إلى عصور أجدادي الأوائل، الذين لاشك أنهم وفدوا من هضاب نجد أو تخوم اليمن.

– من هم أجدادك الأوائل؟

– المسلمون الأوائل – الذين تشرّعت لهم أبواب أسبانيا .. زرعوا فكراً وثبتوا عقيدة وأنشأوا حضارة قائمة لا تنحني ولا تنكسر، رأيت كثيراً من المسلمين، وقابلتْ عداداً متلاحقة من عرب المغرب والمشرق، ولكن أنتِ مثال يختلف تماماً، على الأقل من وجهتي الخاصة. إنه الوحي الصادق الذي ينشر العزم ويثبتُ اليقين أمام من يراك.

– بوركت من رجل غيور وعقل منصف.

– أنتِ تعتبرين الرابعة، من الذين دعوتهم لزيارة قريتي – أستحلفكِ بالله أن تقبلي.

– زيارة قريتك !! أين؟

– ليست بعيدة.

– وحدي يا سيدي لا يجوز، وأنت ذكرت لي أنك مسلم، وتعرف حدود الله.

– أعرف .. ولكن عليكِ الأمان.

– هذا الزمان ليس بزمان «كلمة». ولكن لدّي صديقة أسبانية كانت في ليبيا – وهي التي دعتني لزيارتها في أسبانيا – فأنا تحت مسئوليتها، أخبرها إذا وافقت .. لا أمانع – ولكن ما هو الهدف من ذلك إذا كان الأمر إعجاباً؟ وتقديراً لما قمت به .. فما قلت من إطراء ومدح .. يكفي.

– أريد الزيارة يا عهود .. أريدك أن تزوري قريتي.

– إذن أقترح الأمر وأتشاور مع كراسينيا.

– إذن سأمر عليك غداً في مثل هذا الوقت.

– إذن إلى ذلك الزمن .....

استغربت من هذا الزائر الغريب، وكيف يطرح مثل هذه الأمور على فتاة مثلي، تسمع عن أحداث ما تثير الدهشة وتثلج الفؤاد.

عند ساعة الميعاد، وقفت وكراسينيا في انتظار ذلك الواعد، في الوقت تماماً أقبل، ونزل من سيارته باسماً، نزلت معه فتاة قدمها إليها باسم زينات ابنته، وهي تشبه في كثير من الملامح. تبادلنا التحية وكلمات المجاملة، كان يتكلم، وفكره مستغرقاً في وجه كراسينيا. ثم عزم على ركوبنا معه.

اتجهنا إلى طريق متوسطة الحركة، نتحاكي بأسلوب الطرافة، وقصص عن رواد الموسيقى، وعباقرة الأدب ي قصص الرواية والرسم. بعد ساعة ونصف من السير المعتدل، انحرف يميناً في طريق فرعي عبر سهل معشوشب، تغطيه أشجار متباعدة: سهل نقي الهواء، جلي السماء، رائحة الأزهار الفواحة، تموج بها الأنسلم الحالمة، تنقي المزاج وتشرح الصدر، في مشهد قرب شجرة، ضحك الرجل وأمدنا بعصابة لكل منا، وطلب استعمالها – إنها من القماش الأسود، نضعها على عيننا.

وقال .. الآن قربنا من قريتنا.

– هذا أمر يوحي بالغرابة يا سيدي.. ما هو الذي تريده؟ نحن جئنا معك لهدف إنساني.

– مازلت عند كلمتي يا حكيمة كراسينيا – ضميري مثل ملامح وجهي، كله محبة وحنان.. وهذه أبنتي.

– إذن لِمَ تطلب منا أن نسدل حجاباً على أعيننا؟

– هذا سرّ ونظام قامت عليه قريتنا منذ خمسين عاماً – قبل هذا التاريخ – كانت قريبتنا أرضاً منقطعة مجهولة إلا لأهلها.. نحن.. لقد مر بالقرب منها بعض السائحين الألمان والفرنسيين، مروا بها ومروا غيرهم.. في أذهانهم مجرد قرية أسبانية .. مجرد قرية قائعة في واد أطبق عليها أضلاعه.

– إذن أنت من؟ .. ضيوف من كوكب بعيد؟

– لا لا .. نحن أسبان وقريبتنا أسبانية.. ولكن لا نسمح بزيارتها إلا لمن نطلبه .. ونستفيد منه .

– نحن لا نملك مالاً لمستوى قريتك.

– لا لا .. ها ها ها.. ليس هذا .. قريبتنا غنية، يفيض خيرها على غيرها، تضيف لا تنقص. تعطي لا تأخذ، وترشد لا تهمل، زرعنا في زمن بكر حصاده.

– ربما قريتك هي التي تدعي بالقرية الفاضلة.

– أتمنى أن تكون كذلك، ومن منا لا ينشد الفسحة والجمال!؟

– الآنسة عهود ضيفة على أسبانيا .. أرجوك لا تتعبنا..ز

– إنها على قدم الرجوع إلى بلادها. أعرف .. لهذا رجوتها أن تزورنا. حكيمة كراسينيا.. زينات كانت معي في الاحتفال الموسيقي الكبير .. لهذا ترينها متواصلة في الحديث مع عهود.. إنها معجبة بها كثيراً.. عهود أخبرتني عنك، وأنت عشت في ليبيا سنوات، وأنت التي نقلت الحس الموسيقي إلى وجدانها، وتعتبرين أنت المعلمة الكبرى لها في كثير من القيم.

– نعم يا سيدي.. ولكنها ملكة من ملكات الزمان المجيد.

– بالنسبة لي أنت مثلها .. لدى هذا الشعور منذ أن رأيتك.. سواء في الاحتفال أو اليوم.

– أشكرك يا سيدتي .. مازالت قريتك؟

– لا تتحيري يا سيديتي .. ساعات وأعود بكما – أنا مسلم، والمسلم لا تتعاقب على ضميره إلا مكارم الأخلاق، فطيبي نفسا وقرى عينا، هيا اسبلا الستارة على عينيكما.

قبلنا بالمجازفة، ودخلنا طريق الظلام، أحسن إنها طريق بدائية غير معبدة، السيارة تسير والسيد وابنته يضحكان ويرويان الأحداث السريعة، ليبعثا في قلبينا الطمأنينة، ومع هذا تساوسني وساوس الشيطان ومجهول المصير. في نهاية الساعة من وعض العصابة، شعرنا بانحدار، ثم تراخت السرعة، وسمعنا أصواتاً وحركة أناس. أزاحت زينات العصابتين عنا وهي ضاحكة وتعبت بملابسنا – وإذ بها قريب متواضعة عامر، بُنيت على الطراز القديم، حجارة متراصة، أغلب أبوابها ونوافذها غير مهذبة، لم تلامسها أدوات النجارة ، تستقر في بطن وادي خصيب – يمتد وينحني، تفترشه الحقول والبساتين، والأشجار المثمرة على ما يبدو.مجرد نزولنا أقدم الأطفال ينظرون إلينا ويتهامسون ويبتسمون.

نزلت زينت أولاً، ولم تبق إلا لحظات، حتى جاءت وأدخلتنا البيت، أجلستنا في غرفة متواضعة. ما كدنا نستقر، حتى أقبلت والدتها، وهي امرأة شابة نضرة الوجه نشطة تستميل لمن ينظر إليها. حيّتنا بحرارة وجلست جنبنا بودّ، وشكرتنا على تلبية دعوة زينت ورغبة زوجها، روت لها زينب عن ما شاهدته وما سمعته منك من ألحان يا عهود.. وأنا أيضاً تمنيت لو كنا معهما.

قلت في نفسي وأنا على جناح الهواء – ماذا قدّمتُ يا الله!!؟ ولكن الله يعزّ من يشاء، ويذل من يشاء. لا إله إلا الله.

أقبلت زينب بسفره تحمل كأسين من اللبن، وطبق به تمر مميز، تبين لي أنه جزائري الإنتاج.

دخل السيد عبدالمؤمن ضاحكاً مستبشراً، جلس جانباً وطلب هو الآخر لبناً وتمراً، جلس يحاكينا تارة بالعربية وأخرى بالأسبانية – وهو يتأسف على ما قام به من سلوك محرج عندما طلب أن نجع لعصابة على أعيننا.

– زوجي يا آنسة لم يكن يفعل ذلك إلا مضطراً اضطراراً.

– السيد كراسينيا عاشت في ليبيا عدة سنوات.

– يا الله ؟؟ أصحيح هذا يا سيدتي!؟ إنك موفورة الحظ!

– نعم يا سيدتي .. وكانت أيام حافلة بالهدوء والرضا عن نفسي، وشعور بنشوة الحياة.. خصوصاً عندما التقيت بعهود . لقائي بها ووجودها معي، عوضني عن أشياء كثيرة .. كان يتجاوب فضاء أحلامي. أنا ممرضة. شاركت في تمريض ومؤاساة الناس الذين داهمتهم طواحين الحرب وساحات الموت، في حرب فرانكو، فقدتُ الرجل الذي كنت أرغب في الزواج منه – حرب لا قيمة لها ولا معنى – أحقاد خيانة وأمراض دفينة. نشوف هذه الحرب من أجل أن يلهي بها الناس لكي يتفرغ لعبثه ويضمن بقائه. سيدي، وسفاسفه ويضمن بقائه. سيدي، نحن الأوروبيين بصفة عامة، فقدنا القيم الشرعية وانتابنا الغرور، وتبينا منطق العنف والغلبة والتدمير من أجل السيطرة العمياء، والاستيلاء على امتلاك أرزق الناس وجعلهم عبيداً، إنه الجبروت القاسم والعنف المبيد – أقول بملء في – إنه بداية السقوط، وإعلان الانهيار، العالم لا يقود إلا العمل والأخلاق الفاضلة. لقد رأيت يا سيدي ورأيت وصليتُ كثيراً، وطلبتُ من الرب أن يمحو ما علق على شاشة جبيني من صور ومشاهد مرعبة ودافعة للجنون. بقيت سنوات تحت هذا الرعب الجاثم ، كثيراً ما أجد نفسي في ظلام الليل أبكي وأغني .. وأمشي في الطرقات بلا وعي. سنوات ليبيا معي التي أحسستني بالطمأنينة وهدأت من روعي، وأقرت مكانة قلبي، وثبتت إيماني. فطيبة هؤلاء الناس، وسماحة هذا الوجه النبيل هو الذي قادني إلى ساحات الأمل والرجاء العريض. إنها عهود يا سيدي. فلا أدري لم طلبت منها المجيء إلى هنا، إلى هذا الوادي المبعد في هذه القرية المجهولة الأبعاد؟..

– الذي ذكرتيه عنها، وتشبت زينب بها.. وذلك النداء الغامض الذي يتهادى إلى سمعي وأنا أنظر إليها وهي تعزف بلباسها الوطني التقليدي وشعورها المتصاعد مع دعاء الموسيقى وحوار الحضارات– هذه هي العناصر التي دعتني إلى ذلك. السيدة كراسينيا .. الآنسة عهود .. كنت هناك مع أبنيتي زينب في المحفل الكبير. عربية من شمال أفريقيا، موسيقاره من ليبيا – كيف تؤدي دورها الإنساني والحضاري. لقد أعجبت بها أبنتي، وأعجبت بها، تمنيت من أعماقي أن تزور قريتنا، ويا لفرحتي عندما رأيت القبول منها على شرط أن تصاحبك معها.

– أشكرك .. وأشكرها.

– هذه بنتي .. تدعي زينب في قريبتنا، وزينات خارجها – وهذه أيضاً زوجتي حواء، وصبيّاني: خير الدين ومنصور، وابنة أخرى خديجة وأنا عبدالمؤمن.

– مازلت في مفترق الطرق – ما معنى هذا يا سيدي؟

– تاريخ طويل ومتشعب – سكان هذه القرية كلهم مسلمون.. بعضهم من أشبيليا، وبعضهم انحدروا من جهات أخرى. جاءوا إلى هذه الوادي، أو إلى أماكن أخرى – منذ ثلاثمائة عامة – هربوا من الاضطهاد الديني، ومحاكم التفتيش الدامية التي مازالت مستمرة إلى يومنا هذا، في هذا الوادي توجد ثلاث قرى متباعدة عن بعضها وتُخفي كل معالم دينها الظاهرة إلا في القلوب أو داخل الجدران، حتى لا يهتدي إلينا أحداً. هربنا بديننا الإسلام. هذه هي العقد يا حكيمة كراسينيا.

– يا الله !! ألم يأتي إليكم أحدا؟!

– يأتون ويمرون.. ولكن لا يعرفون شيئاً عمن يكنه القلب، إنها قرى هاربة متطرفة – تؤدي طقوسنا وشعارنا الدينية: لدينا القرآن الكريم، وكتب السنة النبوية، ولدينا شيوخاً وأئمة، في الليل نغرق في بحور الظلام، وفي النهار يغالبنا عزف الرياح – لا يأتي إلينا طواعية إلا السحب والمطر، والحيوانات والطيور البرية – أو الذي ترغب في مجيئه إلينا – طبعا لم نكن في ساحات اعتقال النور في عيوننا، والحرية في قلوبنا لأن عين الله تحرسنا، أبناؤنا يدرسون في المدارس والجامعات، يتم كل ذلك بطرقنا الخاصة – ومن سار على الدرب وصل، أمراض كثيرة متفشية في أوساط الناس، أقصد أمراض مستعصية، بعيدة عن وادينا، لدينا مسجداً وإمامين، وفقهي يعلم أطفالنا العربية والخط ويحفظهم القرآن الكريم – كلنا نحفظ القرآن .. حتى نساءنا.

– أتحفظون القرآن وأنتم أسبان!؟

– نحن هجرنا وهربنا من العالم الخارجي .. من أجل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل، اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا هو عري حياتنا ونور عيوننا وقلوبنا، وبالتالي يا عهود الأسبان بشر وأناس.. والقرآن جاء للناس كافة – إذن ألا يجوز لنا الدخول في دين الله كعيرنا؟.

– عفواً يا سيدي لا أقصد ما رميت إليه – بالعكس .. إنني مقدرة معجبة .. لا مستغربة إن الذي تقوله يا سيدي يرفع من همتي ويعزز إيماني.

– ثلاثمائة عام .. أحد عشر جيلاً .. تربي في هذا الوادي – إنه الواجب المقدس – سنبقى لعل الله يجري على أيدينا غزل اللسان وحوار صدق البيان.

هجرة طويلة .. زمن ليس قصيراً، يحبّط العزائم ويولد الشك، كثير من المسلمين في بلدانا لا يحتملون المكوث ساعة في المسجد .. وأنت أجيال صابرة ، من أجل المثل العليا ومكارم الأخلاق.

– القرآن سيد الكون يا عهود .. القرآن كلام الرحمن .. القرآن لا يدركه ولا يصل إلى معانيه ومراميه إلا الراسخون في العلم. القرآن يا عهود ثلاث كتب: الكون قرن صامت. الكتاب قرآن ناطق. وعند النبي والخلفاء الراشدين – قرآن يمشي على الأرض.

القرآن وجودي، فهو ينتقل مع الأجيال، ويتمشى مع العقل البشري – مع تعاقب وتباين الحضارات الإنسانية: قرآن اليوم ليس هو قرآن الغد، مع إنه قرآن واحد.. إلا أنه يساير ارتقاء العقل البشري.

– سيدي عبدالمؤمن، جلسنا طويلاً، وما تقوله حجة قائمة ومنطق سليم. أعتقد من السهل علينا جولة في قريتكم، مع زوجتكم أو زينب.

– نعم لا يوجد أسهل من هذا.. بل أنا معكم أيضاً.. هيا .. على بركة الله.

– يا سلام ! ما ألطف هذا الهواء يا حكيمة كراسينيا.

– بكل المضامين – دعيني أستنشق بملء رئتي ..كأني في رحاب الجبل الأخضر في برقة... إية وادي عميق وطويل المسافة ثلاث قري .. ومازالت تتقاضوتبتعد عنا كأني أشاهد أحداثاً وقعت في الماضي.

– بل الواقع في بعض الأحيان أعمق أثراً وأبلغ دلالة – أليت قصتنا اليوم ..... ماذا؟ عهود ما رأيك في الذي نحن فيه؟ الوادي ومن عليه.

– دلالة من المعرفة الراقية، ومن التقوى وآية من آيات الورع ....

– عهود أنظري إلى وادينا .. يعج بعماله ومزارعيه وحيواناته .. لو وقعنا تحت حصار أو حروب فلا تحتاج إلا القماش.

– وادي لا يختلف قدسيته عن واد بكه أو جبل الزيتون.

– أرض الله واحدة.. كلها أرض مباركة ومقدسة – والاختلاف في الإنسان نفسه.

– إذن القضية قضية عقل ومناظرة في العلم، فكل أرض كفيلة بأن تغذي من استوطن على ترابها.

– الحكمة في التفكير والتمعن.. «فكل واد لأهله لا يغني» كل من بالوادي يعمل. أيدينا لم تتعود على السكون ليس لدينا بطالة ولا فقر – أسواقنا تتعامل مع أراضينا مباشرة. لا احتكار ولا جشع ولا رياء. لهذا عشنا ثلاثمائة عام في محبة ووئام. قاسمنا المشترك، الستر والعفو والتسامح، الصدق في القول والإخلاص والإتقان في العمل.

– أرى مجموعة من الصبيان .. ورجل يقودهم – تُرى هم أيضاً في عمل زراعي؟

– بل هم في عمل علمي – سأريكم وأقص عليكم ما يقومون به لاحقاً .. عندما نصل إلى مسجدنا .... هذه غرفة الاجتماعات – المكتبة وبها بعض المخطوطات النادرة.

هذا صحن مسجد للصلاة – هذه صالة الأذكار والاحتفالات الدينية وعقود الزواج، وهذا فصل دراسي قائم.

– يا الله!! هذه الطريقة القديمة – جلوساً على الأرض.

– يحفظون القرآن باللوح، والمل .. وقلم القصبة والصمغ من دبس وعبس الماضية.

– ها هم يقفون ليحيوكم، وهذا الإمام أحمد أقبل ليسلم عليكم – أنظروا إليه كم هو مهيب وجليّل!؟ شيخ بركة وناصية خير. يقرأ القرآن بثلاث قراءات – لجينا ثلاثة أقسام دراسية.

القسم الأول: للمبتدئين: حفظ قصار السور ، فك وإتقان الخط العربي. دراسات مبسطة وقصص عن التاريخ الإسلامي والأسباني بصورة مقتضية، تدرس كقصص وحكايات.

القسم الثاني: للأعمار المتوسطة «الشباب» حفظ القرآن – دراسات في السور وتحليل معاني الآيات. دراسات إسلامية – التاريخ الإسلامي الأسباني – طريقة التفكير السليم.

– طريقة التفكير السليم؟ ماذا تعني؟

– طبعاً.. أرى هذا لا يخفي عليك .. إن العقل البشري، وربما حتى حيوانات كثيرة.. له حيزين أو قسمين جهة اليمين، والأخرى في اليسار عند الجبهة في الرأس. معنا مدّرس يعلم

طلابنا كيفية الاستفادة من العقل كاملاً في طريقة التفكير السليم، أي استعمال جهتي العقل بالتدريب الحركي المنظم والمتواصل.حتى يتعود على استقبال الأوامر بصورة إدارية لاستيعاب ما يرد إليه وما يصدر منه. بعد التأكد من إتمام البناء – تبدأ مرحلة الإرادة والتمعن فيما يجري في محيط الحياة. فنحن لسنا جماداً ولا نباتاً ولا حيوانات بكماء – إذن نحن بشر ذو عقول مفكرة ولسان ناطق ومعبّر، وطالما نحن بهذه الميزة وهذا التكريم من الخالق، تحدّونا قيماً مبصرة: التدبير، التفكر والتأمل في خلق السماوات والأرض. خصوصاً المسلم «العبادة» الشهادتان، الصلاة، الصوم، الزكاة، والحج – كل هذه الشعائر الدينية البراقة تعتبر حركات لا معنى لها إذا تخلّت عن مضامين القيم الأربعة السالفة الذكر. الأمر ليس كما يأتي...هكذا وخلاص. التعمق في جزئيات الكائنات – تسهل عملية حفظ القرآن، وحفظ القرآن بالمعنى المطلوب يريح متابعة الحياة. الإيمان مفتاح باب التواصل وكيفية الأداء، القرآن منهج علمي وتشريع سلوك وتعامل اجتماعي في التنشئة والتربية – من ولادة الطفل ومتابعة مداركه مع مواكبة الأفراد والجماعات، إلى أن يتحمل المسئولية مع أناسه وشعبه والتعامل مع الدول وخفض غمار الأمم. لا إسلام بدون تفكير ولا إسلام بدون عمل – العمل بدون تفكير كمن يرسم على الرمل أو يكتب على الماء. إذن الإسلام تفكير وعمل. لنرجع إلى الوراء قليلاً – حتى لا تتجاوز ولا تتعدى المحطات المهمة. رأينا قبل هذا الوقت، مجموعة من الطلبة مع مدرسها، وكذا وقت ذلك نتحدث عن مصطلح «مرحلة التفكير السليم» هؤلاء الطلبة يطبقون تلك المرحلة، التي من خصائصها التمعن، التأمل، التفكر والتدبر، تراهم ينظرون إلى السماء، التراب، النيات، البذور.

كل حدث يحدث، وكل ظاهرة تظهر تمر؛ أما الذي لا يتأملها ولا تمعن فيها.. تضيع من أمامه، ولا يستفيد منها. هذا النمط من البشر يعتبر نموذجاً قاصراً و قاسراً تفكيراً.. فهو إلى البهائم أقرب منه للإنسان. فدراسة الظواهر والتمعن في خلق الله وسبر أغوار الكون، عوامل تعلّم وإثبات إيمان وترسيخ قاعدة ومنطلق: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» صدق الله العظيم. فهؤلاء الطلبة في دراسة تحليلية تربي فيهم حب البحث والتقصي والاستقراء والإنجاز.

– كيف تتصلوا بالناس؟

– بالطريقة التي جئت بها إلينا يا سيدة كرسينيا .. نتطلع إلى الناس – ولكي نحمي ونداري وجودنا في هذا الوادي الذي حمى بين ضلوعه أحد عشر جيلاً، طبعاً لم نكن يوماً في

منفى متواصل – أبناؤنا يدرسون، نزور، ونذهب إلى الحج، ونشارك في كثير من النشاطات الثقافية والعلمية، ولكن نظهر ونتعامل بطريقتنا الخاصة. قريباً نصعد فوق الوادي، ونحول قرانا إلى مدن، ونرفع همة أسبانيا.

– إلى منى؟

– إلى وقت قريب إن شاء الله، بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، تغيرت أمور كثيرة، تبدلّت لوائح وسقطت صحف وتهدّمت وتكسرت بوابات من أهمها: انتهى زمن الإقطاع، بردت فاعلية الكنيسة وتكسرت عري الصلبان، حقوق الإنسان، حرية الأديان والفكر، والسلام.

– أداؤك لفريضة الحج. لابد وأن التقيت بكثير من المسلمين – وزرت بعض من البلاد العربية.

– البلاد العربية يا عهود أقطار متعددة ومتخلفة وفقيرة، لأنها تخلّت عن الإسلام، مقام الإسلام عند أغلبها مجرد ديكور – فلكور – بل أحياناً إلى مستوى الكارنيفال – تلاشت القوة والسيادة أنهار تجري والأفواه عطشى – الأرض مثقلة بالجود والبطون جوعى. العقول جرداء راكدة والفكر حبيس الخوف.. والخوف يفضي إلى التلاشي النسيان. جوقة وطقوس طافحة. التأمل التكفير والتدبر والتذكر.. هذه هي عناصر النهضة – ولكن بكل أسف لا شيء يبدو على المستوى المنظور.

– هل لاحظت أسباب هذا العلل يا سيدي؟

– ملاحظة العلل وتقصي أسبابها – ليس صعباً يا آنسة.. الآن الجوهر يكمن في كيفية استئصالها وتطهير بقاياها، وهذا لا يتأتي إلا بالعلم والفكر الحصيف...

– وماذا بعد يا سيدي؟

– أتريدين المزيد يا عهود .. .. .. قابلتُ مجموعات من الدعاة إلى دين الله، أغلبهم يتأهب إلى السفر – إلى الشرق والغرب لنشر الإسلام لأنه منقذ البشرية– قلت مستغرباً – أنا الذي أعيش في بطن واد مهجور، أحس بما يجري بين الأمم – من هم الروس، من هم الألمان؟ من هم الأمريكان، من هم العرب؟ وأين موقعهم؟ أنتم أيها السادة.. منكم الدكتور، العالم، والأستاذ الكبير – من يقبل منكم وأنت على هذه الحالة من الضعف والتخلف – وتريدون

إنقاذ العالم بالإسلام !؟ وأنتم من ينقذكم؟ تخطون ولا تدرون مواقع خطاكم، لا أحد يسمع إليكم.. إلا من رحم ربِّ. يا أخوة يا دعاة – قصّروا خطاكم، وأبقوا بين شعوبكم، من الأفضل لكم أن تساهموا في نشر العلم والثقافة، ونزع الخوف من القلوب المظلومة – ساعدوا على رفع الرؤوس الكائبة والجباة الحانية وشحذ الهمم، اطرحوا المعرفة، وقدموا المعنى الحقيقي للإسلام، أيقظوا العقل وحركوا الفكر بالحديث النافع والحوار المجدي. ساعدوا الناس على نهضة أوطانهم: بناء السدود، توفير المياه، إعداد المشاريع المنتجة والغايات المطلوبة التي تروي وتشبع وتكسي. تدعون لدين الله وجمع الصفوف، وشبابكم وعمالكم تفرقت بهم السب في أوروبا وأمريكا يتسولون اللقمة ويمدون أيديهم ، طلباً للصدقة. علماؤكم في بلدانهم جوراً واضطهاداً – تعليم قاصر مجدب، وعقول أبنائكم فارغة، لا تقوى على صناعة رغيف. الذي لا يشبعه تراب أرضه لا يعتبر كائناً إنسانياً ذات كرامة واعتبار. إذن أنتم ضعفاء، لا تقبل دعوتكم عند الذي يمتلك الفكر الحر ووفرة الطعام والماء والقوة المادية. الآن وجبت صلاة الظهر – زينب أرجعي إلى البيت مع عهود وكراسينيا ... ... ولكن توقفي حتى يتم الآذان ... إلى ... لا إله إلا الله .... لا إله إلا الله محمداً رسول الله ... لِمَ تبسمت يا عهود؟ لاحظتك تماماً .. أي خاطر ورد إليك الآن.

– ها ها ها ... تماما يا سيدي – نفس العبارة .. كانت بيني وبيني شرطية سجانة، قد حدث ذلك في وقت بعيد: «عندما يبدأ الآذن، لا تتحركين، ولا تتكلمين حتى: «لا إله إلا الله».

– أنظري يا عهود ونحن على هذا الارتفاع كيف هامت قريتنا وتلاشت تحت هذا الظلام الدامس.

– أنا لا أري يا سيدي، فهي ظاهرة للعيان، تشع من نور ربها، فهي في وهج مقدس، يكاد يلفح الأبصار – ألا تحسين بذلك يا خكيمة كراسينيا؟

– أجل بكل حاسة البصر، الشم والسمع.

– ما شاء الله ما شاء الله!.

– ما شاء الله .. أنت في السياق تماماً يا عهود. كنت أتكلم ونظري وفكر يتابعان ما يطرأ على محياك، ومن فهم وقبول – فأنت على مقام الوتر المقصود. يقولون: كلمة المقال، بيت القصيد.. والوتر الملك.

– أجل يا سيدي. هذا هو الحس الناضج ...

– هذا هو الحس الناضج ... هذا هو الحس الناضج ... ...

– ماذا عجبك في عبارتي، حتى تأخذ منك هذا التكرار؟

– الذي صدرت منه هذه العبارة...

– ها ها ها .. إذن .. لم تتدهور ولم تضمحل حضارة الإسلام في أسبانيا. على الرغم من أنها ذروة ذلك الزمان في مقام محاكم التفتيش فإنها بقيت في الشعور، في العمران، وفي سجل الخالدين.

– هذا موضوع كبير يا عهود.. لا تكلفيه مسافة الرجوع بكما إلى مكانكما في المدينة.

– البركة في الذي يأتي...

– التاريخ من صنع الله .. والحضارات أيضاً من صنع الله.. فهو المتحكم في أموره والمحدد في شئون خلقه، فيرفع أمة وينزل أخرى، ويأخذ هذا ويضيع هذا ويكرّم هذا أو يذل هذا، فالحضارة هالة متوقدة من النشاط البشري يوزعها الخالق على أمة من عبادة، ردحاً من الزمن، ثم يحولها إلى أخرى، وهكذا.. وقد مر العالم حتى هذا اليوم، على ثلاثين محاولة.

لو أن مؤسسة حكومية أو شركة خاصة في السعودية مثلاً تريد أن تبني جامعاً إسلامياً في مدينة من مدن الصين، أو جامعة علمية أو سوقاً تجارياً في إسبانيا. لاشك في أن الواحدة من هذه المؤسستين، تأخذ من الوقت سنيناً طويلة وأموالاً ضخمة لتلك الإنشاءات. هذا مع وفرة الأموال وسرعة الاتصالات، التي في بعضها لا تستغرق الدقائق في المشورة وحسن التدبير – ولكن أن تقوم حضارة بكل شروطها المعنوية والمادية. ويخرج وميضها من الحجاز، ويمتد شرقاً وغرباً على مسافة ثمانية عشر ألف كيلو متراً. طبعاً هذه المسافة الشاسعة، تطوي على ظهور الخيل والإبل التي تحمل المؤن والمياه في قفاف وفي قرب. إنسان اليوم يضحك ويعتبر هذا من طرائف وترف من حكايات الخيال – ولكنه وقع فكرياً ومادياً – وأستمر هذا النشوء والارتقاء ألف عام – أظنك لا تصدقين هذا يا عهود .. هذا الاكتمال لا يتجاوز ربع قرن من الشرق إلى الغرب لا تبتعد عن مستوى الأسطورة.

نعم يا سيدي .. لم أقرأ .. وربما لا غيري من مثل سني قرأ، لو قرأ عن التاريخ المجيد، وصناع روائع الفكر – كنا نعتبر زخرف القول، غروراً.

– مازال هذا الوهج اللافح يسري بدفئه، ويجلجل بأجراسه، ويجوب بفكره شرقاً وغرباً. وصل المسلمون إلى جنوب فرنسا – بالذات مدينتي تور ولاروشال. على تلك الجبال وقعت المعركة الفاصلة معركة «الزلاقة» عندها توقفت الحركة، وتراجع الخيل، وتراخت الجبال، وهمدت الهمم وسكنت السيوف في أغمادها.

وقفت أوروبا كلها كالبناء: ملوك، أمراء، الكنيسة وصلبانها، سادة وأمراء الإقطاع – هذا من جانب؛ ومن الجانب الآخر – ملوك وأمراء الطوائف في الأندلس في ملهاة حروب على مسرح التطاحن فيما بينهم من الذي يفوز بالامتياز. القشطاليون يضربون المسلمين بسيوفهم تحت الأعناق ، والأندلسيون في هزلهم وشقاوتهم يضربون الدفوف، إنه الانحلال والتفسخ. هؤلاء يتحالفون، وهؤلاء يتنافرون. فعلى من تحل دائرة الدوائر. والذي يغمره الغبار، يقف مرتجفاً ويقدم مفاتيح الأبواب هكذا فعلت أمراء بني الأحمر.

يا عهود ويا كراسينيا الحبيبية – الله هو المدبر؛ من هناك تنطلق – والي هنا تتوقف – وبين هناك والي هنا .. ألف عام – في البداية .. نظام وعلم وعدل – وفي نقطة التوقف أيضاً نظام ، علم وعمل – والحمد لله – كلنا عبيد الله، والاختلاف فيما رحم رب.

– أنسام الليل منعشة والنجوم طوالع – سيدي الكريم في رحلتنا هذه ربّحتنا بالكثير – أنت جبل أشم. كلك علم، وفكر ورجولة ومسئولية – دبُجتنا، رسائل، إنسانية صفحاتها، تغطي واديكم.. كرم وجود أكثر من الموجود، تربيتك وخصالك لا ينزلان على المستوى الرفيع، ومن أمثالك لا يوجد الكثير. أخبرتك سابقاً، اخترت عهود صديقة ورفيقة لي مدة طويلة – كنت قد اخترتها من بين الكثيرات – ولكن الذي أريد توضيحه .. لِمَ اخترتها أنت أيضاً لزيارة قريتك دون غيرها؟ على الرغم من أنها موسيقارة، لم تكن إعلامية ولا كاتبة ولا شاعرة .. ولا حتى ممثلة سينمائية ناجحة.

– عندما رأيتها بلباسها الوطني التقليدي، وبهذا الجمال وبتلك الروح الشاغرة والثارة، وهي تخوض غمار قصص مقطوعاتها الموسيقية، بتلهف وانفعال، وكأنها تعرضها علينا عرضاً حيا بين ظلام الليل وتحت أشعة الشمس – وكذلك رأيت قبول الناس لها، وعميد بلدية

اشبيليا كما رأيته أنت، يتقدم إليها مبتهجاً والغثارة مازالت في يدها - ويطلب منها المزيد من الجمال، وأن جمال الشرق لا يوقف عنا رسائله - كما طلب منها أن تبلغ تحياته وتحيات الشعب الأسباني إلى الشعب الليبي، ولكن عن طريق الموسيقى.

- أشكرك يا سيدي العزيز - كما قالت الحكيمة كراسينيا : الرجال مواقف، وأنت السيد الأكبر فأين المثال الذي يضاهيك، ولله المثل الأعلى.

۞ ۞ ۞

مر الزمن سريعا لا يُصدق يا عزيزتي عهود، خمسة عشر يوما وأنت بيننا كومضة بصر على محيا جميل عابر في الطريق، نسجت في قلوبنا ذكريات لا يمحوها طيناً، حتى في زماننا البعيد إضافة إلى شهرتك وبراعتك في العزف، تتمثل فيك الفضيلة ومكارم الأخلاق. تسلطتْ عليك الأضواء وتهافتت عليك أقوال المعجبين ورصّاد الجمال، كنت شامخة شموخ الجبل الأخضر وهامات النخيل، جدارك غير قابل للتصدع ولا آيل للسقوط، فما دخلتُ عليك مرة في غرفتك إلا وجدتك تصلين وتذكرين الله بقلب خاشع، فما أنقى وأوسع هذه الشفافية التي تحيط بك ولا أشك في أنك من عنصر غير قابل للتحليل النفسي والاجتماعي، إنك من تربية الله.

- أرجوك لا تبكي يا حكيمة كراسينيا، أنت رمز كبير يتغلغل في قلوب الناس، خصوصا بعدما عرفوك من قصة قصيدة اللقاء الأخير، أنت بوح زاخر لذيذ في الأسماع ومحيا جميل تتطلع فيه ملامح الشعب، أنت ذكرى حية تمجد الأجيال الراقية في أسبانيا، أنت الروح السارية في ضمير الأبطال.

- أحييك على هذا الشعور، ولكن قريبا تتركيني أجوس ملامح الذكرى بين هذه الهضاب، فتين في البوسنة وعهود في ليبيا.

- إنني أمامك يا أعز حكيمة أحس بأنفاسك وأسمع كلماتك، أنت دولة في ممرضة، وممرضة في العالم بأكمله.

- لكنك على أعنة الرحيل إلى بلادك، وسوف لن يبقى معي إلا ابنتاي اللتان تعيشان معي، الكمان والريشة والذكرى معي.

- نعم إني أحس، إني أحس بما أنت فيه، لقد لمعت من عينيك دموع نبيلة، دموع الوفاء وغدر الزمان وذكريات الماضي.

17

حلقت الطيارة في سماء بلادي ورأيت من خلال نوافذها الرمال والمزارع وبيوت الشَّعر وقطعان الجِمال والأغنام، سيَّل ريقي طعم اللبن الحامض والزبد وطعم الشواء على الجمر الملتهب. بعد لحظات قليلة لامست عجلاتها الأرض الحبيبة، ما أجمل الرجوع إليك يا بلادي، خصوصا لمن ذهبت من أجل هدف عام وجاءت من عزيز المقصد كريم الوفاد مدعوم الجانب بما أُتيح وقُدِّم له، كنت أمشي على رصيف أرضية المطار وأحس أنني أتعالى وأن جسمي له أربعة ظلال، وأن الناس وقوفاً ينتظرون وصولي، خصوصا الأطفال، الذين ما كادوا يحسون بقدومي حتى هرعوا إلي هاتفين «مرحب مرحب وين جيتينا أنتِ ديمه عزيزه علينا».

احتفل معهد التمريض بقدومي، تحصلتُ على تقدير كبير معنوي ومادي من قِبل مؤسسات وشخصيات ذات مستويات ثقافية ومراكز عالية في الفن الرفيع. ما كدت أدخل وأفتح باب الصالة الكبيرة في المستشفى، حيث مقر عملي، حتى قام أفراد مجموعتي من أطباء وممرضين وممرضات وعاملات وطاقم الإدارة وصحفية، بتصفيق حاد وهتاف متواصل تكريما لقدومي من خارج الوطن: «هيهات من باقات الورود والأزهار الفواحة!. وهيهات من المشروبات والمرطبات وكلمات ناعمة صادقة ساحرة ووجوه مرحبة طافحة بالبشر!. هذه هي اللوحة الحية التي قابلتني عندما دخلت صالة الجلوس، العيون تنطق بالبراءة، إنه مشهد مفاجئ وموقف مهيب، هذا هو المقام المحفوف بزخارف الفطرة والتقدير الكبير، مقامات

تزيد من ثقتي في نفسي ورفعة همتي ويشجعني على مواصلة العمل وتكريسي لواجباتي وبدل كل ما في وسعي في مساعدة غيري والنهوض به والرفع من شأنه، إخلاصي لمجتمعي من فروض مقدساتي والإنسانية هي أيضاً من واجباتي وحقوقها عليّ خصوصا عندما تَدْ لَهِمّ الغيوم ويفوح الشر، وما القارات والبلدان إلا مسافات واسعة واختلافات كثيرة، ولكن الشعور واحد مهما تعددت المشارب والبيئات.

– ما هي أوروبا يا عهود؟

– هذا سؤال كبير ومفتوح، أوروبا هي أوروبا، إنسان، أنهار، جبال وغابات، مصانع وآلات.. لا تختلف! ولكن هناك أمر آخر مهم «العلم»، النظام والعلم هما اللذان جعلاها تتقدم.. أوروبا الحضارة، أوروبا الازدهار، وتستمسك بعرى القوة والتفوق حتى دخلت ميادين النهضة الكبرى وتتحكم في مصير العالم المتخلّف «حمار جحا»!

الجِدّ والإتقان هما المنطلق الثابت، العمل بالشعارات يكاد لا يظهر، هي صفة منسوبة عندهم إلى البلاد العربية من قِبَل حكامها والقول المعهود بالشعارات عبارة عن أكذوبة، دوي طبل وصوت أجش.. بلا نتائج عمل!

– الحرية التي نسمع عنها، خصوصا حرية المرأة، إنها تأخذ بعقولنا وأبصارنا، فهل لمست جانبا منها؟!

– لقد كذبوا على المرأة وسلبوا منها معانيها وخزائن طُهرها وعفتها وهي مازالت لا تدري! حرية المرأة فكرة مثيرة واسم حركي رنان تستقبله القلوب وتزهو به العيون، كلمة أطلقها أحد قادة أوروبا السياسيين في أوائل القرن السابق عندما أرادوا أن يبسطوا منهجا وإبداع صمام تحكّم عن بعد يحيط بأوضاع العالم الثالث، خصوصا المجتمعات العربية: «إذا أردت أن تدخل بلاداً غريبة فلا تدخل إلا بمعاونة بعضاً من أهلها، وإذا أردت أن تهيمن على مجتمع بأكمله عليك أن تقرب المرأة وتأخذ بناصية ميولها وعرض المبجلات أمامها حتى وإن كانت كاذبة أو مؤقتة لأن المرأة تستأثر بالمغازلة الحسية وتبحث عن اللمعان، لا بُد من تقديم أساليب ساحرة ومقدمات مغرية لإغراقها في الملذات النفسية والحسية وإبرازها على الساحة»!

قالت إحدى السيدات العربيات في أحد المؤتمرات الكبيرة «من أجل حرية المرأة العربية»:

«أيها السادة والسيدات الكرام، إني أكنُّ بكل مشاعري ورغباتي للأنثى العربية أن تتعلم وتواصل دراستها حتى المستويات العليا وإني معها إلى أن تدخل في أعلى المراكز النظرية والتطبيقية وفي الإدارة والوظيفة: عالمة، مفكرة، فيلسوفة، صاحبة نظرة نقدية يتقدم بها المجتمع إلى الأفضل، ولكني لست من أصحاب هذا التوجه، خصوصا في ميادين البرلمانيات والتشريعيات، فهذا يُفسد مسار استقامة خطاها، الرجل نفسه لا يملك في شئون التشريعيات شيئا فماذا يكون نصيب المرأة إلا الانحلال والتفسخ؟ البرلمانات دعوة خير يراد بها باطل، قلت ذلك في يوم مضى فاتهموني بالكفر والرجعية وما البرلمانات العربية إلا وعاء غربي يحاط بالزور يخدم الحاكم العربي الذي هو من شخوص هدامة في لعبة العرائس، تُحرك وتُدار بخيوط خارجية لا تُرى، إذن التشريعيات ولعبة السياسة بين راحتي كفي العملاق! هذه تضرنا ولا تفيدنا خصوصا نحن النساء:»

- **إني أعيش زمن الاستلاب الثقافي والتاريخي وغزو الفكر الهدام.**
- **سرقوا تراثنا التاريخي وطمسوا معالم التاريخ الجميل، وغطوا معالم حضارتنا بمداد الغزو الثقافي الذي بات يزهّي عيوننا ويبهر عقولنا.**
- **أتوا باليهود وجمّعوهم من دروب التيه وزرعوهم على أرض فلسطين بعد أن طردوا أهلها إلى دروب الضياع، ولتصبح شوكة دامية في ظهورنا، وحبل يشد أيدينا وأرجلنا حتى لا نتقدم.**

فأي حرية يريدونها للمرأة أو حتى للرجل؟ هذه الكلمة في الحقيقة لا يُراد من ورائها إلا الضلال والتيه والتهتك الأخلاقي والإباحية الجنسية وقطع روابط المجتمع الإنسانية النبيلة، ولن يبقى له بعد ذلك أبداً آثار، إنهم يطلقون تلك الشعارات المتوالية منذ مائة عام، والقصد منها سواد عيون العربية لا النهوض بها على منصات الفكر والعلم وانشراح البصيرة!

أنا لم أذهب إلى هناك باحثة، إلا أن الحرية بمستوى حقوق الإنسان لا توجد

كاملة، ولكن هناك حرية، وهناك قوى تفرض إرادتها على القوى الثابتة، تكلمت مع بعض الآنسات في أسبانيا وفرنسا.. قلن: «مداهنة وتلوين طلاء، ها أنا أتجمل وألبس المثير وأكشف عن مفاتني، وأصطاد ما يروق لي من الرجال، وأسهر وأمارس الجنس بلا حدود حتى آخر ساعة من الليل، لا شك في أنها حرية.. ولكن ماذا بعد؟ وهل هناك بعد ذلك ضمان؟ لا أحد يجهل ولا يقدّر صروف الضاريات وأن الجسد يداهمه تعاقب الزمن. لنا الحق في التعلم والاستماع إلى أقوالنا، ونكتب ونحاضر ونتبوأ مراكز عالية ونتزوج ونكوّن أسرة.. إلا أننا في نظر الرجل دائما «قِيَانْ» وشعارات جذابة للدعاية التجارية لا يتعدى كوننا جسداً عارياً شهيا مثيرا ومتعة باغية، لم تكن سوق نَخَاسَة ولكنها سوق بيع وشراء أيضاً، والمرأة التي في هذا المحيط هي التي تدفع أكثر»!!

– وماذا بعد يا عهود؟

– الذي يأتي.. وما أكثر ما يأتي.

– إذا كانت المرأة في أوروبا بالصورة المذكورة من جانبك فكيف تكون حالتها عندنا؟ أي حرية المرأة المسلمة في ظلال الإسلام.

– أنا لم أكن باحثة اجتماعية كما ذكرت سلفاً، وإني لم أتكلم عن المرأة في أوروبا وإنما عن حرية المرأة في المدن الكبرى.

– معليش يا عزيزتي عهود، أنت صنف متميز وتمكنت من الحصول على فرصة الخروج وعبرت البحر وتبصرت على معالم وأمور كثيرة ربما تفيدنا، أتمنى ألا توقفي عني صورك الزاهية وأفكارك الرائعة وأهدافك البعيدة وقراءاتك وما تكتبيه.

– ها..ها.. هكذا الصحفي لا بد أن يكون شهماً جريئاً.

نظرتْ إلى أعلى شبه باسمة ولا شك أن فكرها وخيالها يموجان ويمتدان عبر فضاء بعيد...

18

[دخل غاضبا مهموما مُحْمَر العينين نافر الوجه منحني الظهر يحمل عليه أثقال الأمل المفقود، ما كاد يراها حتى ناداها بنبرة خشنة وبصبر نافذ: أم السعد!. يا أم السعد تعالي، أسود ما فيه بياض، اليوم اللي جيتيني فيه، والله ما كنتِ في الخاطر، الله لا يرحم من كان في سببك، هم ذهبوا وأنت بقيتِ عظم في الرقبة! أسمعي، أنا معاش نبيك ولا نقبلك، أنا كرهتك، ارفعي وجهك وانظري في وجهي!!، أنت ناقصة غير قادرة، أنت أنثى قاصرة، جاهلة، فاتتني بنت خالتي.. الله لا يرحم سيدي وأمي!...

حملتِ المرة الأولى.. وجبتِ بنت، وقلنا باهي!.

حملت المرة الثانية.. وجبت بنت، وقلنا باهي!.

حملت المرة الثالثة.. وجبت بنت، وقلنا باهي.. لكن!

حملت المرة الرابعة.. وجبت بنت، حتى لو موش باهي لكن معليش!. لكن يا أم السعد، ها أنت قريب تجيبي وتوضعي، وأنا متأكد أنها البنت الخامسة هي استلامك ورقة الطلاق واعتبري نفسك طالقا من تلك اللحظة، كيف يكون مكاني بين التريس؟ أوه!. أوه!. هذا لا يهمني، رعشتي دختي وطحتي على الأرض.. هذا لا يهمني. أنا نبّي الذكر وأنت تَبي الأنثى]!!

– وماذا؟ ماذا حدث لتلك المرأة المسكينة؟ عهود كمّلي ماذا جرى لها؟

– طبعا استيقظت من غيبوبتها وهي منطرحة على الأرض بين بناتها وهنّ يبكين ويصرخن.

- وماذا بعد يا عهود؟
- لا شك في أنكم تعرفون نتيجة ما جرى.
- ولدتْ بنتا وطُلّقت، يا ناري عليها، مظلومة!
- ولدت صبيين توأم!! إنها ضحكة القدر على عرض من عروض التخلف والجاهلية!
- هذا الحساب الصعب ليس في يد المرأة.
- وهل ولادة الصبي هي اكتساب المكانة العالية ومنطلق الشهرة؟
- من قال؟ ومن يضمن؟
- الخلاصة يا زهرة العين.

- اعطني علما وثقافة أعطيك مجتمعا مستنيرا مدركا. أقول الحقيقة... حقوق المرأة المسلمة وحريتها في تعليمها بجد وتثقيفها بالثقافة الجادة والمتبصرة. هي المفتاح لكل معضلة ومظلة واقية من كل المتربصين، الإنسان المتبصر لا تضيع حقوقه ولا يستغفله أحد، فهو أُذُن تسمع ولسان يعبر ويحاور وحجة قائمة على المنطق السليم، الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، الإسلام ليس انتسابا اجتماعيا بقدر ما هو ممارسة سلوك ومحك وعمل منضبط متواصل. باليقظة والعلم والتحليل- يمكننا استخلاص الإيجابيات من واقع السلبيات:

في ساحة التخلف.. يظهر المُعلم والعلم.

في ساحة الظلم.. يظهر العدل والعادل.

في باحات الكذب والزور.. يظهر الصادق والصدق والأمين.

في قاعات الفوضى والارتباك.. يظهر المنظم والنظام.

في ساحات الضياع.. يظهر الموّجه والأخذ بالأيدي إلى الأهداف الرائدة.

نحن لم ندرك قيمة الإسلام بعد، الإسلام لم يكن صياما وحجا وصلاة فقط، ولم يكن دِينا فقط كما هو في بعض الأديان الأخرى، وإلا قد رأيناه تلاشى وأمَّحَى وأمسى صفحة من صفحات التاريخ والتراث القديم، الإسلام دين، محتوى فكر وتربية ومنطلق حضارة متجدد. أمل كبير وإيمان يتساميان. لقد اهتم بالمرأة المسلمة، رفع من شأنها وجعل لها مكانة سامية وقدَّر دورها الكوني والاجتماعي وخصص لها عُرَى وقُوَى لم يصلها الرجل من دقة في

الحقوق والقوانين فبيَّن في كتابه العزيز القرآن الكريم حقوقها وواجباتها، تكاد لا تخلو سورة إلا ويلوح ذكرها، وكذلك جعل لها سورة خاصة «سورة النساء» معزّة وتكريما لها، إذا كان هناك عيب.. فالعيب فيها وفي الرجل وفي المجتمع المحيط وليس في الكلام المنطلق على هوانه.

إن المشهد الدرامي الذي رأيناه فيما سبق لخير دليل على تراجع المرأة وتخلفها ولو أنها تربت على سجايا كما يريد الإسلام أن يربيها لما استطاع ذلك الرجل زوجها أن يتفوه بحرف واحد أو أن يتبنى الغرب مسئولية حقوقها الاجتماعية! من أجل إفسادها ومسخها.

على المرأة المسلمة أن تعود وتلتمس المجسدات وتحس بالدفء ثم ترشف من ذلك المعين الذي لا ينضب والطاقة المتجددة التي لا تتوقف! «هو تربية الله واعتراف بقدرته فينا».

إن الحرف مقدس..

والقلم مقدس..

والمحبرة مقدسة..

والكتاب مقدس.. «نُّ والقلم وما يَسْطرون» صدق الله العظيم.

19

لقد مضى من الليل القدر الكبير، تزاحمت علي الأفكار وانساقت على مخيلتي شتى الصور، فلا أدري من ولا أدري كيف ومتى؟ فعلى أي طريق تنطلق مركبتي؟ عيناي على السهارة الضئيلة عندما هفا على سمعي دعاء حزين أبعد كل ما حولي من أفكار وهواجس معتادة. لأول مرة يطوف من حولي هذا النداء الذي يشبه الطنين، حاولت مسك نفسي والهروب منه ولكن تجسدت لي الصورة وصارت تعج بالحياة، انهمرت من عيني الدموع، أين كنت؟ وكيف أنسى؟ وكيف عصفت بي لعبة الأيام واختلسني الزمن؟ مهما يكن فإنه الحق وإنه الواجب، لقد تنكرت لي وأساءت معاملتي، الله يسامحها، عاطفتها تغلبت على تفكيرها فجهلها جعلها تتصرف بإيحاء من غيرها ولكننا الآن في مخاض زمن جديد، الخير يعود على الجميع والعيب يرجع لأهله، فأنا بفكْر وهي بفكْر.. و «العيب على زايد العقل» كما يقول المثل عندنا!

۞ ۞ ۞

خلال يومين كنت هناك، كنت أسير وراء رجل من أهل الدراية ثم يقف عند باب لبيت قديم ويقول لي: هذا هو يا أختي، بإمكانك طرق الباب. طرقت الباب، ثم طرقته مرة أخرى، ولم يكلّ متني، وأخيرا سمعت صوتا هزيلا يرد من الشقوق.

- من؟ اشكون؟

- أنا!. افتحي، أنا بنتك عهود يا أمي.

فتحتْ وتأملتْ وشهقتْ شهقة طويلة ثم ارتميتُ عليها معانقة، وفعلت هي بالمثل، ولا تُسمع إلا الآهات والنحيب ولواعج اللوم ولا يُرى على وجه كل واحدة إلا دموع الحزن وغدر الزمان وربث على الظهر من شدة الحنين.

رجع الباب إلى مكانه وخيم سكون الليل عليهما فلا بد أنهما في سمر طويل.

قبل أن تغادر عهود درنة حاولت أن تتصل بعائلة عمها صالح وعمتها غزالة، إلا أن الوقت قصير، وليكن في مرة قادمة، فحكايات عمي صالح وعمتي غزالة تحتاج لأكثر من يوم. في المرة القادمة يا خالتي غزالة. لا أنسى ما قمتِ به في وقت لا أجد فيه أحداً التجئ إليه، الجاحد هو الذي ينسى! أنت حية في ضميري والعمل الجميل يُذكر على رؤوس الأشهاد، أنا كريمة واسعة الجود ولستُ لئيمة! وأعرف أن أمس والحاجة الماسة والمنقذة ليست هي اليوم، والفضاء الفسيح، فشتان بين النار والجو الجميل، وبين النكد والهناء.

۞ ۞ ۞

صار يقترب مني كثيرا، استحوذ على معظم تفكيري وهيمن على أحلامي ويقلقني في نومي، وأخطاء تمر من تحت يديُ نتيجة مواصلة التفكير والسرحان.. مَن هذا الرجل؟! كأنه هاتف، يا له من دعاء خفي لا يتوقف رنينه، تزداد حدته مع توغل الليل وسكون الكائنات، يجوس من حولي ويداري كل خاطر آخر يقف عند باب قلبي، لا أدري قوة العُرَى التي ربطت بيني وبينه على الرغم من أنه ما زال يطوف في فضاء الغموض، لا شك في أنه ساحر قدير ومدبِّر مُكيد ذلك الذي يأتي إلي لينظر في وجهي لحظات قصيرة ثم يذهب بعد أن يبتسم! تذكرته حتى وأنا أعزف غارقة في أمواج النغم، تذكرته ولا أدري لماذا تذكرت ذلك، إنه طيف عزيز يشبه الحلم، أنفاسه موجة عطر، وصوته رنة وتر عازف قدير في مهرجان رقص العذارى، تُرى هل يعود ويجدد خطاه؟

توافدت علي وجوه عديدة تصافح يدي وتطلب ودي وتدعوني للزواج إلا أنني أُخفض بصري وأميّل وجهي معتذرة، لا أدري لماذا أعتذر -علماً من أني أتمنى بعضهم، جمالا وعلما ومكانة، أترقب مَن إذا كان ذلك الوجه لم أره منذ ثلاثة أشهر، إنه حق، رجل أسرار ومن عينيه ينبثق شعاع فريد، إنه يطرق باب قلبي بحدة ويسري في دمي ويستولي على تفكيري ويسترق أسراري.

لا شك أنه يحبني هو الآخر ولولا ذلك ما كرر مجيئه لزيارتي وأنا في غمرة عملي، تُرى أين هو الآن؟ أتمنى عليه أن يعود، إنه مع ذاتي يأكل ويشرب! وصدقت كراسينيا.

۞ ۞ ۞

كُلفت بالذهاب إلى مستشفى الزاوية لترتيب مكان ومساعدة ممرضتين لاستلام وكيفية تشغيل معمل صغير للتعقيم، ثلاثة أشهر لا تخلو من التعب، ذهاب من طرابلس في الصباح والرجوع إليها في المساء.

في لحظة شروق، بعد أن كدت أنسى وأن أستبدل خاتم يدي اليسرى إلى يدي اليمنى، جاء وأنا في غفلة من أمري، وجدته واقفا أمامي، تبسم ومد يده مصافحا، وقفت في ذهول، تركنا أعنّة الشراع وبقينا لحظات ننظر في وجهينا في وجوم! سحب يده من يدي، نظرت إلى الأرض وقلت في خجل: «منذ مدة لم تأتِ!».

- أتيت ولكنك كنتِ في سفر.
- أجل كنت هناك ولكني لم أغب إلا خمسة عشر يوما.
- أعرف.
- من أخبرك؟
- تقريبا.. إحدى العاملات.
- هل كنت تريد شيئا؟
- لا.. لا.. مجرد قول.
- والآن.. تفضل
- بالأمس كنت أعوم في البحر، جُرح كتفي، هل تداوين جُرحي؟
- أراه أولاً.. أوه، إنه جرح عميق ولكن لا تنزعج سأداويه وسيبرأ بسرعة.

لأول مرة أقف بجانبه بهذا القرب.. طويل القامة عريض المنكبين. خلع قميصه وتهيأ للعلاج، صدره وظهره يمثلان الرجولة والفحولة، على صدره غابة كثيفة بكر من الشعر من يدخلها لا يخرج منها بسهولة دون أن يُصاب، له عضلات رياضي وقوة اثنين.

ارتعش عندما لامس الدواء الجرح، أمسكت صدره عطفا عليه ولكن لا أدري كيف

صارت يدي تجوس وأصابعي تتحرك متمردة تتخلل الأدغال في أمر لا إرادي! وفي عدة ومضات لامس خدي ظهره العريض واستنشقتْ نفسي فحولته! واستيقظت عندما قال: «هيا اربطيه.. أشكرك»!

وذهبَ.. وذهبتْ أحاسيسي وخيالي معه، بقيت لحظات في سكون العابدة، تُرى كيف تتقلب الأمور؟ وكيف تتصارع الأثقال وتفرض ذاتها على قوة التحكم في الأوزان؟ تُرى أنها مواقف محيرة لا تعصم من النزول، أنا التي شفيتُ المرضى وسافرتُ إلى الخليج العربي في مؤتمر علمي وصفقت لي القلوب ودُعيت إلى أسبانيا وهتفت لي الآلاف ولعزفي، فآتي اليوم مسلوبة الإرادة وتستسلم جوارحي وعقلي وأركع لحب هذا الشقي الغامض المجهول؟! فأي درب هذا من دروب الحياة؟ فيا أيها الكمان رد على كلامي وأعطني الجواب! الحياة ذكر وأنثى والحب بينهما قاسم مشترك، فلولا الحب ما شفيتُ أحداً ولولا الحب ما عزفت وأبدعت في استنطاق الألحان من رقائق الأوتار، لولا الحب ما عزفت كراسينيا ولا ناحت باكية على روسيلو، لولا الحب ما صاح طفل ولا غرد طير ولا أنشد شاعر ولا فاح زهر. الحياة يا صغيرتي أغلبها أحجيةً وحججاً، كثيرا ما نقوم الليل ونخطط معايير لأنفسنا ما تقوم عليه تفاصيل يوم غد، ولكن ما يكاد يأتي مساؤه حتى نجد ما قمنا به أكثره بعيدا عن تلك المقاصد، وحلت أخرى محلها تملك العقل والفكر والحواس ولكن كلها لا تقوى على الانسياق نحو المصير الغامض وتقلّب المقادير!

وما هذا الحب؟ وهل يُعقل هذا وذاك؟!

هل تذكرين يا عهود؟ لا تنسي كراسينيا، لقد وقعت قبلك ونفت وجيب الدنيا من أجله، تجود الحبوب بسنابل الخير والأشجار بالفواكه إلا أنها لا تعرف مَن الآكل. أسلوبك غريب أيها السابل، أحببتك ولا أعرف اسمك ولا من أين ولا من أنت، أنا هكذا طوحت بي المجريات ولكن أنت ربما تأتي هكذا دون أن تقصد ما أحس به أنا.. لماذا تجعلني أشقى؟ أفكر فيك طويلاً ودروب الليل متشعبة وطويلة!

مر أسبوع بعد مجيئي من درنة، توقعت حضوره، ومرت ثلاثة أسابيع ولم يأتِ.. وتوقعتها.. النهاية! رجاء طافح وخيبة أمل، فزادت حدة الشعور به والرغبة إليه، ولكنه ذهب!

الممرضة صبريه جاءت تخبرني أن رجلا يطلبني في صالة الاستقبال. رجل يقصدني؟ نحن ما زلنا في مطلع الصبح، خير إن شاء الله. هناك يجلس على كرسي. هو.. هو.. بلباس يختلف هذه المرة، أنامل يده اليمنى على شفته السفلى وعيناه مسافرتان مع خياله في سقف الصالة!

– أهلا وسهلا أيها الغريب، أنا لا أعرف اسمك بعد، تفضل يا سيدي، هل التأم جرحك؟

– كما توقعتِ تماماً، يجازيك الله خيرا، أنا أعرف اسمك.. أنت الحكيمة عهود.

– أجل.. كيف عرفت اسمي؟ ولكن من غير حكيمة، أنا الممرضة عهود.

– أعرفه، العبرة ليست في الصفات.

– ولماذا تريد أن تعرفه؟

– لأنكِ عهود، عهود في الاسم وفي الجسم وفي الروح وعهود في الحب! ذكرتُ لكِ أسمك قبل ذلك.. هل نسيت ذلك؟

– لا أفهم قصدك..

– أريد أن أقول لك قولا..

– تفضل يا سيدي، أنا كما تراني على عجل.

– هذا أمر لا تحدده دقائق، أنتِ داويت كتفي من ذلك الجرح العميق، التعبير اللفظي لا يفي بالغرض والماديات قاصرة ولكني. إني.. أحبك!! أحبك من كل جوارحي وبكل صورة من صور الجمال. هذه هديتي أرجو أن تقبليها، فإن قبلتِها فهذا من حسن طالعي وسأعود إليك قريبا.. سأعود!..هيا..هيا..لاترددي..

هدأت أعصابي واستقر تفكيري وتراجعت دقات قلبي، اتسعت الآفاق أمامي وصرت أعي وأحس بمفردات وألوان أجمل وقعا وأزهى إشراقا.. إنه الحب! إنه الموسم الذي تفوح فيه الأزهار، ويغرد فيه الهديل.

هذا الاعتراف يتعالى كثيرا على تمجيد عميد بلدية اشبيلية وتقدير المستمعين لي في مهرجان العزف الكبير. قول جميل قاله واعتراف بالفصحى، طرق أوتاراً كانت غير محسوسة في سويداء أكنتي قبل هذا الاعتراف المبارك كنت على عتبة البوح والاعتراف ولكن الله كرمني وأعزني في مقامي، ولكن يا لأسلوب هذا الرجل، وكيف يرمي شباكه! أخذت هديته.

وفي غرفة خاصة أزحتُ الخيوط المذهبة الرفيعة، إنها ساعة ثمينة من الذهب الخالص، رموزها ذات أحجار كريمة من الماس النقي تحيط به هالة ذات شروق أزرق سماوي، تسمرت في مكاني شبه تائهة، لماذا اعترفَ؟ وهل أحس بحبي؟ لا أشك في ذلك، إذن لماذا قدم هذه الهدية؟ إنها هدية تَقارب وحب لا غير.. ولكن متى يعود ويحدثني بما أريد قوله؟ ومن هو؟ وأين المكان الذي يسكن فيه؟ إنه دائما هكذا، يقف أمامي ولا يستوضح هيئته، ويقول ولا يكمل جملته، ويذهب وشوقي إليه يلاحقه. تأملت الساعة كثيرا، قبلتها ثم لبستها، وخرجت ونظري يطوف بعيدا وصديقات العمل يمازحنني في خبث أنثوي ساخر، كلما أتذكره يتراءى لي وجهه الساحر وكلماته الأخيرة تتردد وكأنها الآن: سأعود إليكِ قريبا، آمل أن تقبلي هديتي.. سأعود إليك يا عهود.

ومر شهر وكان زمنا طويلا، ومر شهران، هذا غير معقول، لا يصبر محب على محب كل هذا الوقت الطويل، لقد تعبت وقوفا من طول ساعات الانتظار! أيتها الشمس الصاعدة أترَيْنه الصدق أم العبث؟ فيا سفينة التيه أراك لم توفق في رؤية الشاطئ، فإن زماني صَرفَتْهُ الخواطر، أول مرة أبكي من أجله ومن أجل ذلك المتربع على سرايا فؤادي. القراءة والعزف.. العزف أبلغ عمقا في نفسي وإثارة شجوني. أتمنى لو أعرف اسمه، لماذا يكذب ويخون العهد؟ إذا لم يأت في هذا الشهر سأحطم ساعته بين حجرين ولن أقابله إذا أتى مرة أخرى وحاول أن يذكرني، إنه مريض ومعتوه.. من جاء من الغيب لا يهدأ حتى يعود إلى الغيب، رجل لا يعرف قدري ومعزتي بين الناس، إنه لا يستحق حبي ومقامي، جدار هاوٍ لا يُركن إليه ولا مسند يقاوم هزات الزمن، زيف طافح وحب من نسيج الأساطير، ها أنا أقف على استقامتي وأنفض يدي منه وفي القلب حسرة!

ها هي الأيام تتباطأ وتتحرك غاربة مع هالة الذكرى وإني سأكتب سطرا أو أكثر، سوف أقرأها عندما يدخل بنا العمر ساحة البرد والقعود! واجترار القديم الغابر.

أخذت في كتابة مذكراتي واخترت لها عنوانا مثيرا من أحد عناوين معزوفاتي: «عازف في الليل».

ذات يوم دُعيت إلى عرس، وكان عرس كبير مزدحم بالمدعوات والضيوف ونساء كبار العائلات، ما كدت أدخل وآخذ مقعدا بين النساء حتى سمعت اسمي يذكر متداولا، وما

هي إلا وهلة حتى أقبلت مجموعة من الفتيات والنساء إلى مجلسي وصدح من بينهن زغاريد يثير الحمية:

– ألستِ عهوداً؟ مرحبا بك يا عهود.

مددن أيديهن مصافحات، قبلات وكلمات تمجيد وشكر وتقدير، قالت إحداهن:

– طبعا إنك أنتِ، لقد قرأت كثيرا من مقالاتك في الصحف وما كُتب عنك وما قدمت من نشاط فني وإنساني سواءً أكان ذلك في الكويت أو في أسبانيا، لا يذهب عني أنك مثقفة وأديبة وموسيقية ورسامة وممرضة ماهرة، إنك في موسم نبوغ مبكر يتجاوز حدود عمرك الصغير، نحن نحس بك في مقام اعتزاز وفخر والكلمات لا توفي.. فإلى الأمام يا عهود أيدينا تشد على يديك وقلوبنا معك، أنت ذُبالة تحترق نُصبت أمامنا تنير سبيل الهداية، أنت نموذج خير ومنطلق موفّق، وإننا الآن نتمنى بل نطمح أن نسير على هداك!

قلت في نفسي: ما أروع هذا، ما أروع أن يُحب الإنسان من قِبَل مجتمعه، خصوصا في مجالات القيم الفاضلة، البحث والعلم والأدب والتفاني في خدمة الشعب ورفع من اعتبار الوطن. إنه لعزف على أجود الأوتار.

في هذا العرس تعرفت على بعض من شخصيات المجتمع اللواتي أخذن من الكلمة والقلم والكتاب صديقا ومن الفكر المتحرك معيناً.

إحدى السيدات قادتني وأوصلتني إلى قاعة ملتقى الفكر في ميدان الغزالة، حضرتُ بعض الندوات الأدبية والشعرية والاجتماعية والاقتصادية، شخصيات كبيرة كنجوم خافقة كنت أسمع عنهم وأقرأهم، والآن ها أنا ذا أقف أمامهم والفخر يعزز كيانهم ويمجد أثرهم. دخلت مع بعضهم سوق الفكر، ما أكاد أستفهم عن قضية أو أمر حصيف حتى يجيبك من بدايات ويحيطك بأساور بعيدة المنال وحصيلة متفوقة ما كان لي بها علم، كنت أقف مع بعضهم فرداً أو جماعة وفي نفسي.. هل أستطيع مجاراتهم في البيع والشراء وفي الصاعدات والمتداعيات وفي الرائحات والآتيات؟ الفكر محاور متحركة ومباراة متداولة بين العقلاء، مغير الأمم وناقل الحضارات وحَكَمٌ أمين لمجريات الزمن!

أيها الكاتب العاقل والناقل على الورق النظيف.. أيها الناقل الصامت، وأنت الساهر في هذا الليل البهيم، لا أشك في أنك تأخذ ما بوجدي، ما أروع الحديث معك أيها الحبّار العظيم! لا تلوم ندائي، حسبك إني بهذا الدعاء، ذلك الذي كان يتراءى ويجوب عالم خيالي عند مخاض الشروق وقبل احتضار الغروب، لا تلمني إن قلت لك أنت الرجاء وأنت البديل الوفي، وأنت الوحيد الذي يبقى، وفي جوفه أخبار الأمم وأسرار الناس القديمة والتي مازالت في رحم المستقبل.

لقد تلاشى ضياؤه وخبت ناره وبات هديره يضمحل ويخفت صداه رويداً رويداً، ألا ترى أني قصّرت خطاي ورميت عصاي؟

– هذا أمر مؤسف وأنتِ ما زلتِ في شرخ الشباب.

– أحاول أن أصاحبك أنتَ.

– لا تقدرين.. لا تقدرين! فإني حبر ولسان، أخرق الجبال، أعبر الصحارى والبحار.

– أعرف أنك قوي، دروبك معتمة، وأخرى ذات بهاء، أريدك أن تضمني إليك.

– لماذا يا رفيقة الليل؟

– كنت أبحث عن جناح يؤازر جناحي لكي أرفع هامتي وثقل هيكلي من وزن الحياة.. فلم أجد ذلك الجناح!

– أثقلتِ على ريشتي، لماذا تمسكينني هكذا بكل جذب؟ إني أنا أيضاً أحس.

– حتى أحتويك وبك أقدر على مطاولة الزمان ومغالبة الأحداث، أريد مرافقة الفكر وأوقف محبتي على العلم والثقافة، إن العمر ليس بعدد السنين.

– لوحدك؟ لا، لا تستطيعين بدون أنيس.

– أخبرك إني قطّعت أوصالي مع أمر اسمه الرجل!

– أين علمك وأين ثقافتك؟ أنت تكذبين، فكرك معي، وما زال قلبك يخفق وينادي وترجين لقاه، لقد حفر اسمه على لسانك وبنى مسكنه في وجدانك.

– أنا تجاوبت معك وأرفع بصري إلى دروب النجوم فلا أعبأ بما يجرى على الترى.

– الذين يخرجون عن القاعدة ليسوا أسوياء.

– لا أدرك ما نويت.

– أنت من أهل الشعور الراقي والفن الجميل فلا ينبغي عليّ إصدار حكم يجب أن يخضع له الفن، الحب من الجمال والفن العظيم، فالحب جناحان يشدان هذا الوجود، فبالحب تضيفين.. وتضيفين.. وتضيفين.

– كنت أظنه فارس أحلامي ومنارة قصدي ولكنه عاد من حيث أتى، لا أدري كيف جاء ولماذا غدا؟ وهذه هديته تشير إلى حلول ضياء الصباح.

– الدنيا واسعة وألوانها الزاهية لا تحصى، طويتِ صفحات، اقترب السَّحَر بماذا أظنك الآن؟ أنا بين أناملك أختزل وأخط مندفعا في المسارات، خدّك على راحة كفك، عيناك عامرة بالدموع فما أروع هذا المشهد الفريد!!.. حسناء تصارع الكرى، قنديل ذبلت ذبالته وقلم وقرطاس وسكون يوحي بنغم عذب رفيع يصدر مترددا من فجاج جبال الغيب يناغم حبري ويراقص ريشتي!

20

منذ سنة ونصف أسكن في شارع الزاوية، في عمارة الممرضات، في شقة صغيرة بالدور الثالث، لا تأتي لزيارتي إلا بعض الممرضات أو بعض الجارات، فيأتين عند الحاجة إلى مشورة صحية أو إرشادية إلى نوع من الدواء أو تحديد معيار الجرعة.

قمت متأخرة من فراشي، ميعاد عملي مساء، قبل منتصف النهار كنت في شغل شاغل مع شئوني الخاصة، كنت أتابع وأردد كلمات أغنية من الراديو عندما هفت إلى سمعي طرقات خفيفة على باب بيتي، كنت قد ظننتها إحدى الممرضات الفاضيات، ترددت قليلاً على عدم العزم، ثم أقبلتُ وفتحت الباب:

- من؟ من؟

- أنا.. افتحي يا عهود.. افتحي.

هو..هو.. صوته!! هل أفعل ما يريد؟ بماذا وكيف أرد؟!

ارتفعت معايير دمي ومقاييس مشاعري واجتاحني فيض من الدهشة والذهول، وفتحت فوجدته أمامي يبتسم وبيده قفة مغطاة بمنديل أبيض، نظرت إلى وجهه، من أنت؟ من أنت؟ ألست الذي عالجتُ جرحك؟ هل عاودك الألم؟ الحمد لله الذي لم يصبك مكروها. بدل أن أمسك منه القفة أمسكت ذراعيه شبه معانقة مستسلمة، ولم أعِ إلا على صوت امرأة تضحك بالقرب مني، تقف وتقول في زهو: «أنا الأوْلى أن تضميني يا عهود، أنا الأوْلى قبل ابني غازي».

تُرى ماذا أسمع؟ أتُرى هذه حقيقة؟ نبرات رقيقة! أي حلم أنا فيه؟!

– أهلا وسهلا، هذه أمي وباتي، هل تستغربين؟ أنت تعرفينها.

اندفعت عهود صارخة ومفردة الذراعين تعانق وتقبل هذه وتسلم وترحب بيديها الاثنتين وهي في مفاجأة ومناجاة وفي غبطة من الفرح لا يصفها لسان، أي فيض رحيم هذا؟! أي يوم سعيد هذا؟ فيض من الجود حضر في ملهاد الفرس الأصيل والفارس المسَمِّي.. خالتي غزالة.. عمي صالح، لقاكما هذا أمواج من الشكر في أعز لحظات العمر، وهذا الرجل يا خالتي من يكون؟

– كيف؟ هذا غازي، ولدي غازي!! كيف ما تعرفيش؟ لا يتوقف عن ذكرك وسماحتك، ومقامك عنده.

– رأيته وقابلته ولكن لا أعرف اسمه، لا أعرف أنه ابنكما.. مرحبا يا غازي، آنَسْتَ يا غازي. هيا ادخلوا.. يا للحظات السعيدة، لا أنساك يا عمي صالح، لا تغيب عن خيالي وذكرياتي، دائما أذكرك بأنك والدي على قيد الحياة.

– حقوقك علي يا عهود، رجائي من الله القدير أن يعينني على رد الجميل إليك، أخرجتِني من حياة الظلام إلى النور.. أنا يا عهود أقول أنت مصباح يتوهج علماً وخيراً، في نفسي أنت شمس لا تغيب، أباركك في كل صلاة، يهبك الله الخير ويضفي عليك الصحة ويثبت خطاك يا بُنيتي.. وأن تكوني زوجة لابني غازي.

– ها.. ها.. هكذا على طول يا صالح!!؟

– ليه لا يا غزالة؟ ها هو ابني كما تراه عهود. رجل ومهندس، كريم الأصل عزيز النفس لا يحني رأسه ولا يسمح ليده أن تكون السفلى. موش هو هذا الكلام يا عهود؟ لا.. لا تخجلي يا بنيتي.. هذه سُنة الحياة. الحمد لله، اللهم لك الشكر والحمد، هيا يا غزالة ويا بنتي عهود طيبن الغذا، هات السجادة يا عهود إنه ظهر.

هذا هو منتصف الأسبوع الثاني لوجود عائلة السيد صالح في ضيافة عهود. الوجه الرحب وما يضفي من بشائر سعادة، ذلك المُحيا الذي يبعث في نفس الخالة غزالة الرضى وطيب الوفاد. وأنت ماذا تقول لنا أيها الخبَّار الكبير والحبَّار العظيم؟ لا بد أن تقول، حتى

وإن كنت أمين سر، فإن الخبر لا يموت ولا يفنى!

- «أحيانا ألاحظ وقفات لا تخلو من مضامين وُدّ واستجابة، لحظات هيام، يلتقيان في غفلة عند عتبة المطبخ فيهمس لها شبه باسم وشجون الحب يدفع طموحه فتتبسم له في خجل وتنظر له بطرف عاجل ثم يسري متكسرا إلى الأرض في خيال ساحر كأنها في مخاض معزوفة على حد الظهور يعزفها مائة عازف، عند المدخل القصير رأيتهما يقفان وجها لوجه.. يداها في يديه وعيناه في عينيها المسبلتان القريبتان من صدره، تقول له في صوت شاعري أخاذ: كفى يا غازي كفى، لقد غزوت قلبي وملكت عيني وحاصرت خيالي عند كل منطلق، وتسألني عن القصيدة؟ أقول لك إنها أشرفت على البوح وحان زمان إلقائها»!

❁ ❁ ❁

«السبت فات والحد فات وبعد بكرة يوم الثلاث.. ميعاد حبيبي».. هكذا قالت الأغنية، ومن هذا اليوم انطلق فرح عهود مبتدءاً بيوم الثلاثاء، لم يحن الظهر بعد حتى ارتفعت في الفضاء ثلاث زغاريد رنانة طويلة النفس لذيذة المسمع تعلن بداية فرح ومولد عرس، فُتحت نوافذ وأبواب بيوت الشارع «على النبي والسيد علي، شوره بدي العرس» هكذا قيل من وراء بعض الأبواب والنوافذ.

باب بيت عهود مفتوح على مصراعيه ونوافذه مشرعة، خف أطفال الشارع وصبيانه إليه، وهكذا سرت الحيوية والنشاط تدبان فيه وأمامه. حتى الآن لا أشم رائحة طبيخ إلا إنني أخص بالذكر أنفاس الشاي الأحمر المُعد على الفحم، والكاكوية التي تُقلى على ناره الهادئة، كيف تفد إلينا وتفوح في أنوفنا؟ وربما يعبقان الشارع بكامله.

كلما مالت الشمس للمغيب ازداد الشارع بهجة وحركة، انبرت القناديل، تزاحمت السيارات، توافدت النساء، تمازجت أصوات الأطفال وصيحات النساء وتواصلت الزغاريد.

غابت الشمس وانطوت صفحة النهار وبات الليل ينشر أنفاسه المثيرة الفعالة، رائحة القرنفل والعفص والجذرة وزيت المحلب، إنها أنسام توحي بخلجات وتطلق رعشات متلاحقة تغذي الجسد وتحفز الشعور للنشوة والشهوة وفحولة متجددة!

– أيها الحبّار لماذا تدفعني إلى الداخل؟ أرجوك لا تُقلق وجودي وراحتي، منطق الفضيلة لا يسمح بدخولي إلى مجمع الإناث!

– ألا تسمع صيحاتهن وصهيلهن؟ ربما هذا من منطلق الحشمة. بهذا لا تجود بشيء. إذا لم نتحرك فلن تأتيني بشيء أرصده وأدونه وأُخبر عنه، لا بد من المسعى والتقاط الجديد، هيا يا رفيقي تخطى العتبة، ألا تسمع؟ لقد بدأت الأهازيج والأغاني.

– إنهن كثيرات متحررات وفي زهو مطلق، إنهن لا يدركن، كلهن بأرديتهن عاريات الرؤوس.

– حتى وإن أدركن فلا يزددن إلا تبجحاً، أنت لا تعرف الأنثى يا رفيقي خصوصا عندما تكون منطلقة في هذه الغابة، لا تبتعد، لا يحسسن بنا، نحن غريبان في صورة مصباح يشع وهجاً وضياءً.

– انظر، انظر إلى الخدود والوجوه الناضجة المستديرة والشفاه المصبّغة بالسواك، وهذا الجمال وهذه الحركات وهذا الدلال وهذا الدعاء الأنثوي الذي يبتليني بكل نواميس الإغراء!

– هل تتمنى واحدة؟

– لو تفلح الأماني.. أكثر من اثنتين، ما أروع النساء في هذا الجو الخصب وفي هذا العمر، هيا تقدم.. تقدم حتى لا تصرعك النهود المتمردة!

– ما هذا؟

– أربع رحى وضعت على التوالي وعند كل رحى طبق من سعف النخيل، واحد به قمح والتالي به شعير والذي بعده به قصب والأخير به حناء، جاءت ثمان نساء كل اثنتين تناولتا رحى، الخالة غزالة والأم مريم أم عهود، أول الجالسات حول رقعة تحركت الرحى حول محورها «القلب» امتلأ الرماي بالحَب وزام صوتها يغشى الفضاء وانطلقت الزغاريد والتصفيق و «الشتاو» و «الرّباخ» وارتعشت الأردية، غشت الأنوف غيمة من البخور والعطر الفواح فزاد في الإثارة الجسدية والنشوة النفسية وأخذت الصبايا شوطا طويلا في الرقص. وُزعت كؤوس الشاي ثم استجاب السمع إلى أغاني الرحى، من هذه ومن تلك ومن اللائى؟ يخاطبن الطبيعة وتقلبات فصولها وعناصرها، يذكرن الزوج والأبناء وشجاعة

الأخ والعائلة وقوة القبيلة ومكابدة الحياة وتسابيح ودعاء إلى الله وأبناء الوطن والدفاع عن العرض والأرض وذكر الحرث والسيل والمطر والحصاد:

يا ريت خوتي ثلاثيـــــن وأولاد عمـــي بزايـــد
لا ياكلوا لقمـــــة الديـن ولا يلبســوا جرد بايـد

☆☆☆

شكع برقهـا دار مقـباس وخـــلَّى النوادر عـــوالي
رجع وطنَّا بعـــد لاياس وروَّح اللي كـــان جـالي

☆☆☆

جي يدفر ناقل الطيـــــن على لشـــل كيف الوشايع
كيف هلنا كيف المساكين منا شبـع كـــــل جايع

☆☆☆

بترولنا عبر كـــل وديان وجي من صحارى بعيدة
مِنَّا رُوِي كـــــل عطشان وخلَّى بلادي سعيـــــده[1]

☆☆☆

ساعات ليالي الفرح لا تُحسب من العمر لسرعة مرورها، وها قد انقضى نصف الليل في هذا الاحتفال الرحوي.

طُرحت الأفرشة والبُسط وانحسر على ساحة واسعة داخل المنزل. بعض النساء استبدلن ثيابا وأردية غير التي كانت عليهن، فاح الطيب وعبق البخور من كل جانب، انجلت الأسنان بالسواك وانطبع لونه الأحمر على الشفاه، أخذت كل امرأة زينتها من الذهب والفضة والديباج والحلي، وبات المكان يعج بالعرائس والغيد الحسان، أغلبهن تجمعن على هيئة حلقة مستطيلة، انطلقت موجة من الزغاريد عندما ضُربت عزفا ثلاث درابيك في آن واحد وعلى نبرة ووثيرة واحدة ويفوح الطيب وتتحرك المشاعر وتخفق القلوب وتموج الشجون ويحن الحاضر للغائب ويحل الربيع قبل موسمه.

---

(1) من التراث الشعبي

تصدح مغنية من بين الجالسات ويرتفع صوتها الناعم وتتدرج بأغنيتها طويلا، وتتوالى أغاني الحب والعشق، تقف فتاة بارعة الجمال وتتقدم إلى وسط الحلقة، التصفيق عاصف، تزيح طرف ردائها عن رأسها وتتركه ينزل إلى مستوى حزامها فيظهر شعرها الأسود فتتركه يموج نازلا حتى ردفيها ويبدو أنها عاشقة غازل سمعها دعاء نافذ وعابر إلى قلبها من بعيد، تبدأ في الرقص وتنطلق معها أغنية لإحدى المتحفزات، يسخن الجو المحيط فيظهر الكلام المعبر والاحتكاك المباشر يتحدى كيانها وأنوثتها، فتفسح لنفسها أكثر، فتظهر تعابير عيونها وجمال وجهها وطول جيدها ونهود صدرها وساقيها وبراعتها وخفتها في الرقص وما تكاد تكل وتتوقف حتى تأتي واحدة أخرى أو اثنتين أو ثلاث في شوط واحد، وهيهات من القرص واللمز والغمز ولمس النهود والمداعبة من أجل الإثارة والشوق إلى الذَّكر ومحاولة التقرب منه والاعتراف له عن طريق الرسائل أو الكلام المعبر الذي تنقله الشوشانة أو «العجوز المعبرة» فلا تجعل خيالك يحوم بعيدا عن حدث مغامرة، وربما حتى مقامرة تحيط بها الأسرار ويلفها رداء الليل المظلم، كل ذلك يجري على طرقات الدرابيك وكلمات الأغنية وخطوات الراقصة.. يا لعالم النساء العجيب، ولكنه عُرس.

امتد هذا الصخب المثير حتى وقت السَّحَر، توقفت الدرابيك وتصرمت الحلقة، ولم يحل وجه الفجر حتى امتلأت الحجرات والساحة بالأجساد الأنثوية المنطرحة على الأفرشة في عبثية مُطلقة، لا أستطيع أن أقول شيئاً ولكن الأمر يدعو للاستغراق.. فكلما تخيلت فإن خيالك قاصراً ومحدوداً.

لم تمر ساعة تقريبا على التاسعة صباحا حتى توقفت ثلاث سيارات «ميني باص» تحمل لوحات «ل. ب» أمام بيت الفرح، وما كادت تفتح أبوابها وينزل منها وافد حتى خرجت عهود مع بعض صديقاتها لاستقبال الضيوف، ما كادت تحدق النظر وتستوعب المشهد حتى صرخت من هول المفاجأة: يا للآهات والدهشة ويا للشوق!! يا للعناق ويا للضم والقبل «ما أسعدني بهذه الوجوه وهذه الأصداء القديمة ما كنت أحسب أن تعود لي هذه الذكريات الرحيمة، حتى أنت يا مرضية تجشمت المتاعب وجئت من الجغبوب؟ لا حرمك الله من عزّ تتمنينه، كيف حال عبد الغفار وأولادك وأهلك؟»

– كلهم بخير.. وأنت؟

– ها أنا كما ترين.. في عرس ها.. ها.. ها!!.

– مبروك عليك، إن شاء الله فاتحة خير وبركة يا رب.

– إن شاء الله يا رب، هيا ادخلي، ها هي الصبايا نزلت كلها، من درنة من البيضاء من بنغازي.. لماذا فعلتم هذا يا أعزاء تعب وعناء وطول مسافة وخطورة؟ يا الله!! ربي قدّرني على رد كفاكم.

– أمال فيش بنجوك!!؟ الناس بالناس وللناس، من أجلك يا عهود يسهل ويهون كل شيء، هناك سيارة أخرى على وشك الوصول من معهد التمريض مبعوثة من طرف الإدارة في بنغازي.

– يا الله!!. هذا كثير، أشعر بالخجل من هذا الجميل، مستواي لا يصل إلى هذا المقام!

– أنت في الحقيقة أعلى وأعز وأوسع وأشمل.. أنت جبل.. أنت الجبل الأخضر بكامله!!

– أعزكم الرحمَن وعشر خطاكم..كيف عرفتم أخباري ومتى سمعتم بعرسي؟

– العَلَم الخفاق لا يغيب عن أنظار الناس وأذانهم، نتابع أخبارك جملة بجملة وخطوة بخطوة، رفعت مقامنا بين الناس، عرّفت بنا من كان يجهلنا ولا يعرف قدرنا.. أقول لقد جعلت لنا شأناً كبيراً. هذا هو النموذج الفاضل والعنصر الملتزم. ما أروعك وما أعلى قامتك لقد صرت رمزا يُقتدى بك. مقالاتك في الصحف وفي المذياع، رحلاتك إلى الخارج، عملك النظيف الملتزم. أنت طيف رحيم في غُرّة غمره صعود الفجر.. كم أحبك!كم أحبك! يا أيها الرمز الصادق.

– وأنا أيضاً يا سناء.. كم أحبك!

– عهود.. عهود!! يا شهرزاد أمس وشهرزاد اليوم وبلقيس الغد..

– نعم يا مرضية.. رجعت إليّ؟ ألم تفطري بعد؟!

– سؤال كبير يلح عليّ.

– نعم.. ما هو؟

– ماذا بأمك؟

– أصيلة.. أصيلة أنت يا مرضية، سؤال كبير بحق، ها هي في الداخل تعول مع العوالات، والبارحة كانت تغني وترحي مع الرحايات مع عمتي غزالة. عمي جالس «امبجّد» في جرده مع «التريس» في حوش الجيران. جاءا من درنة من يوم الأحد.

– أمّا أنتِ!! «أما أنتِ» !! لم أجد ما أنوه به إلا أنكِ رائعة! رائعة وبأحاسيس دولة، شعور نبي.

– أجل هذا من شأني.. ولماذا نتعلم إذن ونتقصى الخطى ونستنتج من العقبات التي تصادفنا في طريقنا؟ لو أخذنا ما يقدمه الناس لنا من إساءات ونبذ وإحراج ولا نعتبر أن هذا ضعف منهم وجهل ونترك ما قدمه الجانب الزاهي منهم يُنسى، أراه جحودا ونكرانا لرسالة الحياة وفقدانا لبريق رونقها وعمق معناها.. هيا هيا يا شرقاويات الفطور جاهز.. وبعدين نكمل المشوار.

– والله لا نذوق شيئا حتى نكمل مشوارنا. توا اتركينا لحالنا، الفطور مرجوع عليه يا عهود.. هيا يا بنات.. الدرابيك.

انطلقت الزغاريد وطُرقت الدرابيك وعلى الفور تداعت أمواج من الروائح والعطور، صدحت الأصوات وتعالت الأغاني تتصاعد في فضاء الحي تخاطب كل شاعر وتقرب كل ظامئ تشوقه المناجاة، تربعت الضحى، امتدت وثيرة الانسجام، كأن البيت ارتفع من كل أركانه لدرجة أنه أثار فضول الشارع بكامله، فُتحت النوافذ والأبواب وأطل من خلالها بعض الرجال والنساء، صدرت كلمات: «شوره الشراقة جو». أقبلت النساء وتجمع الأطفال والصبيان وأزداد البيت حشدا على حشد.. وتوقف كل راجل منبهر يستمع إلى مقامات العرس وهدير الفرح!

– ماذا هناك؟

– كل البيت يموج نخيخاً ورقصاً «ايهبّل»[1].. انطلق المهجور وظهر المستور لدرجة أن البنات الصغيرات انجدبن إلى المشهد فدخلن حلقة الرقص والحلقة مكتظة بالراقصات الهائمات. لا تغفل أيها الحبَّار، نحن في الشارع في مثل هذا المكان نسمع جيدا ولكن لم نَرَ جديدا يُذكر ونحن في انفعال منذ أن سمعنا الزغاريد وشممنا البخور.

---

(1) شدة الإعجاب

– لا بأس، حتى هنا توجد مفردات واضحة، ولكن أنت تريد ملامسة الدفء والصوت الناعم القريب.

– لا.. لا.. حاشا لله، صرت تتجاسر عليّ يا قلمي العزيز وتتهمني بالتطاول وأحيانا بالباطل، إذا كنت ترى هذا فهذا الذي بيني وبينك، فأنت اتجاهك شرقا وأنا مساري غربا!

– ها.. ها.. لا.. لا.. مجرد دعابة يا رفيق الدرب، الذكر والأنثى، وسنة الحياة، أنا معك.. ملامسة الثمار الناضجة والأسرار الجميلة تكمن هناك حيث تنبعث الزغاريد وصهيل الداعيان إلى نعومة القربى وإثارة الشهوة! ولكن الوقت ضحى والناس عروض من حولنا.

– ولكن نريد تحبير شيئاً من تلك...

– حاولت بمفردي.. لا جدوى.. مكتظة، حفنة رمل ترميها على الرؤوس فلن تسقط على الأرض حبة واحدة.

– أسمع، أسمع.. يا ضيعتنا!

– أعرف كل ما يجري الآن يفيدنا، ولكن ما باليد حيلة.

– يا خسارة..

– تتحسر على حرام؟!

– أنت تعرف أني استلطف الجنس الآخر، هذا من ناحية، والأخرى هذا الذي يدفعنا ويقودنا، إنه ليس لي فقط وإنما أدونه بمهل للأجيال القادمة، كيف تجري أمور عاداتنا وتاريخنا وموروثاتنا التي ستعزز شخصيتنا ومصادر جذورنا؟ إنه الوقوف على استقامة على الصخرة العميقة التي نثبّت عليها أقدامنا وينطلق من رحابها لساننا بالكلمة والحركة والصورة.

لقد قدم الضيوف لوحات نادرة المثال في النغم والغناء والرقص المثير أكثر من ساعة في شوط متواصل وعلى وثيرة واحدة من الحدة والنشاط.

ما كاد يتوقف ذاك الهدير الصاخب حتى جاء ثلاثة من الرجال، ذُبحت الخراف، تسارعت الطباخات، «ترادعت[1] أكمام عِصَّادات ومِلاّسات العيش»، توافد المدعوون وتوالى تقديم «قصاع البازين» للجالسين من الضيوف. أصبح الشارع كخلية نمل نشطة بين مُقبل ومُدبر.

(1) رفعت أكمام القمصان إلى أعلى الذراع تحاشي المضايقة.

21

رجل متميز بطوله الفارع وجمال هندامه، بيده ملف ويمشي بين اثنين بلباسهما الوطني الأنيق، إنه الإمام المأذون، توقفوا لحظات أمام باب بيت الفرح كأن أحدا يكلمهم، ثم واصلوا سيرهم حتى دخلوا بيت الجيران حيث يقيم الرجال والضيوف، وقف الحاضرون تقديرا له واحتراما لمقامه العلمي والاجتماعي، قُدم له الطعام والفواكه، نصبت أمامه سفرة حيث وضع فوقها سجله.

السيد الإمام عبد الهادي مأذون المنطقة.. هكذا قال أحدهم، حيَّ بيده الجميع، ذكر اسم الله، بسمل وقرأ سورة الفاتحة وقال:

– يقترب مني عم الفتاة ووالد الفتى، الخير في الخير، كُلفت أن لا أبدأ بأمر حتى يُؤذن لي، فآمل من الحاضرين الكرام التمهل قليلا.

نظرت عيون الحاضرين إلى وجوه بعضها شبه باسمة مستغربة متعجبة من هذا الطارئ، لم تنقض ربع ساعة حتى أقبلت العروس بين اثنتين من صديقاتها بلباس الفراشية، دخلن سافرات الوجوه عيونهن في اتجاه الإمام:

– السلام على الرجال، ثبت الله أقدامكم وعشّر خطواتكم ورفع مقامكم، يا الله يا رب.

– وعليكن السلام ورحمة الله وبركاته.

– بسم الله الرحمن الرحيم.. أيها الإمام، أيها السادة، أنا ما جئت إلى هذا المقام الكريم من أجل أمر غريب أو شكوى تُعيب، وإنما هدفي وقصدي «صداقي» أي حقي كأنثى من الزوج الذي شرعه الله لنا، وكذلك لا أستميل إلى طلب أو مكتوب جرت عليه العادة وانطبع عليه الناس، وعندما أقول هذا لا أُنقص من شأن نفسي ولا أتجاوز حدود المعنى المقبول.. المقدم والمؤخر لا يزيدان عن ربع جنيه، منهج وسنة وتشريع وتربية إسلامية، هذه التربية أحبها الرسول عليه السلام أنا أحب أن أكون سيدة ذات بركة وخير، لا أقول أياماً بقدر ما هي ساعات حتى أصبح زوجة لرجل ارتضيته لأني أرى في أعماقه بالنسبة لي فوق المنال، من تلك التفاسير أرى أيضاً أن لي منافع وحقوق وواجبات خاصة وعامة، الرجل الذي سيصبح زوجي بعد قليل هو جالس بينكم، فبالموافقة مني عليّ منه شروط.. يا غازي تعال عند الإمام وبين الشهود.

أقبل مسبل العينين تعمر وجهه مسحة من الخجل والعرق المتصبب من جسمه وجبينه.

– هل سمعت قولي يا غازي؟

– نعم..

– قوة الناس ليس في كثرة عددها وقوة عتادها بقدر ما هي في ترابطها الديني والتراثي والمعرفي، بلادنا كبيرة ومساحتها واسعة ونحن قليلو العدد، ومع هذا منتشرون في أبعادها ومساحاتها المترامية، نحتاج إلى ربط ووصول متينة وعقود لا تنفصل من بعضها لا يعاليها الترف ولا تذيبها النائبات، لقد جاءت تشارك فرحي وفودا وضيوفا من الجغبوب ودرنة وبنغازي والبيضاء ومسلاته والزاوية الغربية وحتى درج وغدامس، أليس هذا بالأمر الجميل وصدق الطوية؟ أنا لم أدعُ أحداً من هؤلاء ولكن الضمير الواعي والواجب الإنساني وحب الوطن.. ذلك الذي جعلهم يخفون إليّ ليشاركوني فرحة العمر، هذا الشأن ليس بالأمر الهين واليسير.. يا غازي أنت مهندس طرق والعبرة ليست بالأسماء والصفات بقدر ما هي عمل متواصل وإبداع متفاوت وخلق متفوق، إن الشهادة العلمية أو الإفادة ليست ورقة مكتوب عليها بالحبر ومختومة بختم الدولة، وخلاص! الشهادة الحقيقية المحك الميداني وقياس نسبة عرق الجبين، لا بد من إزاحة غمار الوثنية وثَنْيُ الْكُم عن الساعد وذكر اسم الله، لا بد من ربط مدننا بقرانا ونجوعنا وواحاتنا ببعضها بعضاً بطرق العلم والثقافة وإحياء التراث

الشامل بلون اليوم وبمعنى متجدد لا يخضع للخرافة، وكذلك بطرق إسفلتية متينة ممتدة على مجال رصين معبدة الاستقامة، حتى نقترب أكثر ونشد أيدي بعضنا ونعمل على المستقبل، فالواجب والأمانة أمامك وأمام أصدقائك وزملائك الذين سيقومون معك حتى ترفعوا الأطراف كاملة... فماذا تقول؟!

– أوافق أمام الشهود يا عهود.. ولن أتوانى لحظة كلما أتيحت لي فرصة ولا عرقلة من الغير.

– أحب المتفائل المتطلع وأنفر من المتقاعص المهموم، أنا واحدة ولكن لا أرى نفسي إلا من خلال الكل.

– أعرف منكِ هذا.

– كتبتُ مذكراتي وجعلت لها عنوانا «عازف في الليل».

– وأنا عازف في النهار.. وفي الليل، لا أعتبر نفسي إلا من خلال قيمة الكل.

– إذن على بركة الله، استمر يا سيدي المأذون حتى لا يجف حبر قلمك.

قالت ذلك وذهبت راجعة من حيث أتت.

وجّه الإمام وجهه تجاهها زغللت عيناه، وهو سابح بنظره إليها منساق إلى كيانها، بإحساس الفرح والاكبار، وهي تتباعد وتتوارى مع صاحباتها، شيئاً فشيئاً:

ونظره يلاحقها قائلا وعلى وجهه تعبير فخري:

– أصيلة!! بُوركتِ يا فتاة، أفكارك عالية ومعانيك درر وتبر، سبحان الله!! ما نكاد نخطو خطوة وتحيط بنا فرص التأمل والتدقيق حتى تهبنا المقادير موقفا أو مشهدا جديدين يضيفان لحياتنا معنىً جديداً وأملاً مشرفاً، هذه هي المرأة، تلك التي أتخيلها في بعض من سور القرآن الكريم، هذه المرأة هي المعنى الحقيقي للوجود، هي التي تأخذ من الرجل وتشكل الكائن الحي في ذاتها ثم تضعه كما أراده الخالق، هي التي تبني وتربي وتقوّم عماد الحياة، من صعودها تقام الحضارات ومن تربيتها يُصنع الرجال. هذه هي المرأة في الإسلام، أمثال خديجة وعائشة والخنساء.

قال أحدهم من أحد الصفوف، ويبدو أنه ملم بشيء من الثقافة:

– ولكن يا سيدي الإمام ليست كل النساء مثل هذه! هناك من تهيئ الرجل وتفتح أمامه طريق الـ Superman وكما يقولون «وراء كل عظيم امرأة»!

وقال آخر في صف آخر، وليس ببعيد عن صاحبه الأول من الثقافة إلا أنه يبتسم:

– هناك أيضاً يا سيدي الإمام نساء تنزع من الرجل الهمام كل قيمة وهيبة وتحط به إلى مستوى الـ Dogerman ولكن نصحح ونقول: «أمام كل رجل عظيم امرأة عظيمة»!

– المهم اتركونا مع صاحبتنا أعزها الله وكرّم مقامها حيث ذهبت أو أقامت، وأنت يا غازي، لقد طلبتْ زوجتك منك مهرا غالي القيمة، غالي جدا.. جدا.

– أعرف.. وسأعمل.. وأتمنى من شعبنا أن نتحاب أكثر ونعين بعضنا بعضا.

الدرابيك تعزف والأغاني تتواصل وأمواج من العطر والبخور تقذف بها الأنسام من فتحات النوافذ والباب وحتى من أعالي السطح.

22

قبل الغروب توقفت سيارة دبلوماسية تابعة للسفارة الأسبانية ونزلت منها ثلاث نساء وحمل السائق مجموعة من الهدايا كمشاركة في الفرح وتكريما لعهود.

الشارع يعج بالناس والنساء آتيات رائحات ورائحة الكسكسى يموج بها الشارع، لغط وهرج ومرج وعوّالة تتحرك. هبط الليل ومتاريد الكسكسى تصل إلى مريديها من النساء والرجال والأطفال، وقد راعني أحد الشيوخ يمضغ واللحمة في يده ويقول:

لحم امزبعر[1] يا حَنا طبيخه حلوه وفواحه
خير مشرتع ما مِنَّه[2] عرس السمحه جابِنَّه

استؤنف العزف والزغاريد بعد ساعة ونصف تقريبا من التوقف واستُبدل المكان من أسفل إلى فوق السطح، مجال أفسح وأنسب للحركة والنشاط خصوصا بعد أن هُيئ ومُدّ سرب من المصابيح الوهاجة، المكان ملائم تماما إلا أنه شبه مكشوف على سطوح البيوت المقابلة والمجاورة، ولكن في الأعراس والمناسبات اللامعة تفك العُقد وينطلق اللسان وينكشف المستور، فلا تبالي الفتاة بما تقول ولا تبالي المرأة بما يراه الرجل فيها وما يسمع منها

---

(1) كبير وسمين

(2) كثير

ويقول فيها، وما العرس إلا فرصة من فُرص العمر للتعرف والتقرب، والتفّرج والانفراج على النفس المكبوته!

عصفت موجة من الزغاريد والتصفيق، دلالة على التفرغ للطرب: «درابيك ترن.. وزغاريد من وين يشنّ.. ورقص صبايا يا زينة» أما تسمع مثل ما أسمع؟ هل نبقى يا صاحبي هكذا خارج حدود الخط المثير؟ تسمع ولا ترى، تشم ولا تبتهج!

– قليلاً.. قليلا.. لا تتعجل. انظر إلى حارس الباب، لا يترك ذكراً يقترب.

– هيا.. هيا بسرعة، غفلة سانحة.. هيا نصعد إلى أعلى... ما أروع هذا وما أجمل ما أشاهد.. يا للحسن المثير والربيع النضر، حلقة ممتدة من النساء جالسات وواقفات كلهن لابسات الرداء يفُحنَ عطرا وإثارة، راقصتان تأخذان العيون وتهزان الفؤاد من جمالها وما تعرضان من فن رفيع، ومشاهد إثارة!

– آي.. لقد صدمتني واحدة بعنف لأنها منفعلة ولا تشعر بمن حولها!

– كفى لا تقل شيئا حتى لا يُفتضح أمرنا!

– ها هي عهود صاعدة السلم تبتسم وهي تحادث رفيقتها، تُرى ماذا تريد أن تقدم؟ أواه يا رفيقي ما أوفر حسنها.. يا ليتها زوجتي! بالله عليك أنظر ماذا بقي بعد هذا الجمال وهذا اللسان؟! وهذه الملابس!!

– طبعا.. إنها جميلة وإنها عروس، وإنها أنثى وإنها على مشارف...!!

وقفتْ بعيدا عن الحلقة تعدل من هندامها، تفك الحزام وتسبل الرداء إلى أسفل قليلا إلى أن تتناغم أطراف الرداء مع جمال الساقين وتشحط[1] الحراتية ميلا إلى الصدر.. وتدخل الحلقة، تنطلق الزغاريد ويحتد التصفيق وتتناغم طرقات الدرابيك،

تنجذب إليها الوجوه وتتعلق بها العيون بانبهار: تشرّع يديها.. وتتقدم خطوات في وسط غمامة من بخور «الوشق»، تُلوّح بيديها، يرتعش نصفها الأسفل، تخطو وتُحجل بحركات تلاعب الإيقاع، ترجع بخطاها إلى الوراء، ترى جسدها الحائر بإعجاب، تلمس

(1) تشد

أطرافاً من ردائها، ثم تمسح على صدرها الناهد. الجسد كله يتحرك ويضطرب منادياً ويتفاعل مع الإيقاع الصاخب ويستجيب لأدق نبرة. على الرغم من أنها ترتدي رداءً إلا أن جسدها الثائر المفتون يتمرد على ملابسها ويتجاسر على العيون. تتدرج إلى أسفل في براعة وترتقي إلى أعلى في إحساس عميق وخضوع لدعاء الموسيقى، وتميل يساراً وتنحني يميناً في حركات تبدو خارجة عن نطاقها وقدرتها على السيطرة -أَهَلْ هذا جسداً؟ أكيد أنها لا تحس بمن حولها.. إنها فوق الجميع. ما كادت تأخذ الشوط، حتى أقبلت إحدى الفتيات البارعات الصوت- تغني بنغم يطرب السمع ويُفرح القلب ويزهي الخاطر- طويلة النفس نقية المخارج، صادية الصوت- تُرتب مقاطع أغنيتها وتقسّم المسافات وتردد الفواصل والمفاصل بإحساس شاعر وبراعة قادر ورعشات عازف موهوب.

فَرَحْ عُهـــــــوْد نديُرو لـــــــهْ عِرْسُ وزِكّارْ وهِيلُولَـــــــهْ
إنديرولَهْ شانْ ونعلنهْ فِي كل مكانْ وقنديلـــهْ من فـــوق إيبانْ
وهيا فيسع نمشولـه
إنجيبولهْ خِيلْ، وفرسان يهـــدو مشاويرْ وجِحفهْ بتميْل تمييلْ
وحصان عزيز وكروسه
زغاريدْ إيشن، وصبايا ع الرقص تحن ودربوكه من ويـــن ترنْ
وصفيق مرادع يا خاله
غثيتكَ ع الردفين يجل وخلخالك ع الساق يهل وهزاتـــك في العين تكـن
خطاويك خطاوي حجاله
ريتك هدّاله تريته زينك داير حاله موَّالـــك في الجـــو تعالـــى
بابور الداعَ عَ الجّاله